

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



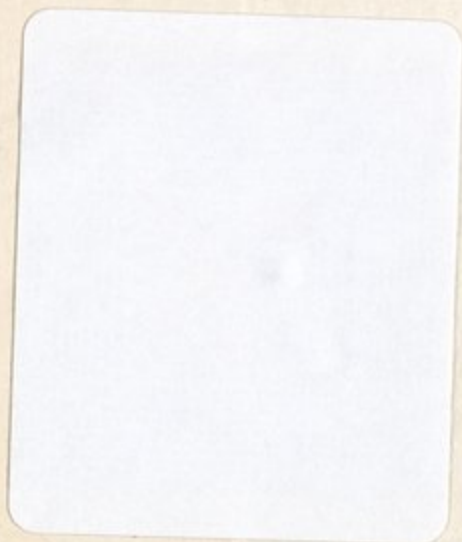
3 8534 01010 2113

P
7
E
S
1

00-05199

put 3rd

1'



7-0 MAR 1943

PJ
7692
E8
S2
1943

卷之六

PJ
7692
E8
S2
1943



أنظار

ترجمة بتصرف لمنتخبات من القصص القصيرة

al-Sa'id, Aminah,
Amṭar

أُمِينَةُ السَّعِيدِ



ملغزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

Act

8927082
Am 54s

1 cc
P.P. 5

22491

إهداء الكتاب

إلى روح والدي الطاهرة

إلى من ثقفتني ورباني ، وعلمني كيف أواجه الحياة

أهدي كتابي مـ

أمينه السعيد

10/10/13

My dear Mr. [unclear]

I have just received your letter of the 10th inst.

and am glad to hear that you are well.

I am very busy at present but will write again soon.

Yours faithfully,

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

[unclear]

مقدمة الكتاب

القصة هي أجمل ألوان الأدب النثرى ، وأشدّها وقعاً في النفوس ،
وأكثرها مدعاة للتسلية . . . وهي السلاح القوي في أيدي المصلحين
منذ أقدم العصور ، بدليل أن الكتب السماوية على اختلافها قد حوت
الكثير منها .

ولو أردنا أن نتتبع تاريخ القصة لاضطررنا أن نتتبع أيضاً تاريخ
البشرية . . . فمنذ أن خرج الناس من عصور الحيوانية إلى طور
التفكير ، وهم شغوفون بهذا اللون من الأدب . . . ولقد عرف العالم
القصص قبل أن يعرف الكتابة ، فألف وحفظ الكثير منها . . . وتناقله
جيل بعد جيل . . . ومن أجل سهولة تذكره ، وضعوا للكلمات أوزاناً
معينة تسهل مهمة حفظه وترديده . . . فلما انتشرت الكتابة والقراءة لم
تعد هناك حاجة للأوزان . . . نخط الكتاب ما ألفوه واعتمدوا على
مخطوطاتهم في بقاءه ونشره .

أما القصة القصيرة فترجع أيضاً إلى أقدم العصور ، بدليل أن هناك قصصاً من عهد الفراعنة ومن عهد بوذا . . ولكنها كانت تدور دائماً حول العظاات والبطولة والمغامرات التي يلعب الخيال فيها دوراً كبيراً . . . فلما تطورت الأزمان تطوّرت معها القصة القصيرة . . . ودخلت عليها عناصر جديدة هي العواطف البشرية ، والعلاقات الجنسية ، والمعاملات بين الناس . . فأصبحت القصة القصيرة صورة حية يرى القارئ فيها أمثلة من الحياة الحقة ، وما يدور فيها . . .

وعميد القصة الإنجليزية القصيرة هو الكاتب الكبير « بوب » . . . فقد أراد بحكم عمله في الصحف أن يسهل للقارئ فرصة استيعاب قصة كاملة في جلسة واحدة . . . وكان لبوب تأثير عظيم في الدول الأخرى وخاصة فرنسا . . . فاقتبس الفرنسيون طريقتة ، وبرعوا فيها كل البراعة . .

أما في إنجلترا فلم تنتشر القصة القصيرة إلا بعد أربعين سنة من وفاته . . . عند ما نشر « براندر ماثيوز » موضوعه المسمى « فلسفة القصة القصيرة » . . ووصف فيه أوجه الاختلاف بين القصة القصيرة وغيرها من أنواع القصص . . ووضع لها قواعد وقيوداً ، منها وحدة الموضوع ، ووحدة الزمن ، ووحدة المكان . . . وتقيد الكتاب بهذه القيود مدة من الزمن . . . ثم أطلقوا الحرية لأقلامهم في التعبير

عما يجول بنفوسهم دون قيد أو شرط . . . ولكنهم لم يهتموا الموضوع
أبداً لأن الموضوع هو عماد القصة . . . وقد يكون للكاتب أسلوب
رائع ، ولكن جمال أسلوبه لا يفيد كثيراً إذا لم يكن لديه موضوع
يصوغه في هذا الأسلوب . .

وعلى الرغم من أن القصص القصيرة قد اقترنت دائماً في أذهاننا
بأسماء الكتاب الروسيين والفرنسيين أمثال تشيكوف ودي موبيسان
وغيرها ، إلا أن القصص الإنجليزية القصيرة لا تقل عظمة عن غيرها . . .
ولا يقل كتابها مقدرة عن إخوانهم الفرنسيين والروسيين . . . بل إنها
تتميز بجمال ودقة قد لا نتذوقهما في سواها . .

والقصص الإنجليزية القصيرة تنقسم إلى قسمين :
أولهما يدور حول الجزائر البريطانية . . . فيصف سكانها على اختلاف
طبقاتهم وإحساساتهم وأفكارهم . .

وثانيهما يحملنا إلى بلاد أخرى بعيدة كالهند والصين وجزائر
الحيط الهادي . . . وقد برع الكتاب الإنجليز كل البراعة في هذا النوع
بحكم اتساع دولتهم وانتشار أفرادها في أنحاء المعمورة . . . وقد
مهد لهم الترحال فرصة الدرس والرؤية ، فجاء وصفهم مطابقاً للحقيقة
والواقع . . .

وقد يأخذ بعض الناس على القصة الإنجليزية القصيرة طولها الذي
يتعارض مع المقصود من اسمها . . . ولكننا نجيب على ذلك قائلين إن
الفن لا يقاس بمقياس خاص . . . والفن هو تعبير من تعبيرات النفس ،
ولذلك لا يصح أن يتقيد بطول أو قصر معين . .

وقد جمعت في هذا الكتاب عدة قصص لم أرم في جمعها إلى هدف
معين . . . ولم أخت هذه المجموعة لأنها تعبر عن ناحية خاصة . . .
كلا . . فكل ما أردته هو أن أقدم للقارئ ألواناً عديدة من الأدب
الإنجليزي . . . يختلف كل لون منها عن الآخر في الموضوع والأسلوب
وطريقة التفكير عند كبار كتاب القصة الإنجليزية القصيرة . .



أمطار

للكاتب الانجليزى الكبير ستر ست موم

فى مساء أحد الأيام كانت باخرة انجليزية تقطع المحيط فى طريقها من
سان فرانسيسكو إلى سيدنى . . ووقف الطبيب ما كفىل على ظهرها
وهو يدخن لفافة من التبغ ويحدق فى الظلام المنتشر فوق المياه . .
ارتسم السرور على محياه لقرب وصول الباخرة إلى آيبا بعد أن قضى
سنتين بعيداً عنها يعالج الجند فى ميدان القتال حتى أصيب بجرح أفعده
عن العمل مدة طويلة . . وقف هكذا ساهماً يفكر فى الحرب ويستعرض
مأسىها الكثيرة فتهد فى حزن وألم . والتفت إلى يمينه فرأى زوجته
تجلس بعيداً فى رفقة أسرة دايدسن فسار إليها متمهلاً وجلس إلى مقعد
بجوارها . . رفع قبعته فانعكس ضوء المصباح القريب على وجهه . وكان
الطبيب أصلع الرأس خلا شعيرات بيض تنتثر هنا وهناك ، أحمر الجلد
الذى جعلته السنون ، نحيف الجسم هادى الصوت خافته .

نمت بين أسرة ما كفىل وزوجته وبين أسرة دايدسن المبشر صداقة
لم يكن منشؤها اتحاد الأخلاق والطباع وإنما دعت إليها ضرورة الرحلة

وشعرت السيدة ما كفيل بزهو وخيلاء إذ أن صداقة المبشرين تثبت
أنهم أفضل الركاب خلقاً وأكثرهم احتشاماً . . ولم يشاركها زوجها في
شعورها هذا فهو رجل متسامح كأبناء مهنته لا يهيمه التبشير ولا يسره
انتقاد غيره بل يعطف على من قست عليه الحياة ويلتمس عذراً سائغاً
لكل من يخطئ فيها ، ولكنه أخفى شعوره هذا خوفاً من مصادمة
دايقدسن وزوجته .

و بعد هدأة من الليل جلس الطبيب في حجرته يخلع ثيابه استعداداً
للنوم ووقفت زوجته أمام المرأة تمشط شعرها . . قالت .

— لقد أخبرتنى السيدة دايقدسن اليوم أنها مدينة لنا بهذه الرحلة
ولولانا لشعرت بسأم لأن بقية الركاب لا يصلحون لصداقتها وزوجها
— لم أكن أدري أن دايقدسن وزوجته على درجة من النبيل
والترفع تجعلهما يحتقران غيرهما ويشمخان بأنفيهما عظمة واستكباراً !!
— ليس هذا استكباراً أو ارستقراطية بل ابتعاداً فقط عن أناس
لا يعرفون غير الخمر والميسر .

— لا أظن أن عقيدة المبشر ثابتة إلى هذا الحد !!

التفتت إليه زوجته غاضبة وقالت في حدة :

— كم مرة طلبت إليك ألا تمزح في حديثك عن رجال الدين ؟
ليست الظواهر الخارجية هي التي تكون الإنسان بل مرجع الأمر إلى
الخلق الكريم والمبادئ السامية المنغرس في القلوب .

نظر إليها طويلا ولم يجب فالسنوات العشر التي مرت على زواجه
قد علمته أن هدوء البيت وسعاده في قبول ما تقوله الزوجة دون مراجعة
أو مناقشة ... فانسל إلى فراشه وأغمض عينيه ولم يلبث أن أخذته
سنة من النوم .

في صباح اليوم التالي وقف الطبيب فوق ظهر الباخرة يرقب
جزيرة پاچو پاچو التي تقترب الباخرة منها . ولاح شاطئها الصغير كواد
فضى بين جبال عالية تغطيها الأشجار الخضراء ... ولم تلبث السيدة
دايكدسن أن جاءت ووقفت بجواره ... وزوجة المبشر امرأة دقيقة الجسم
لها شعر داكن وعيون حادة زرقاء ... ووجهها مستطيل عليه مخايل
الذكاء وصوتها رفيع حاد لا ترتاح إليه الأذن ... وهى فى حركاتها
السريعة ولفقاتها تشبه الطائر اليقظ المتوثب .

قال الطبيب وهو يغتصب ابتسامة :

— ألا تذكرك هذه الجزيرة بتلك التي كنت تعيش فيها ؟

قالت :

— هناك اختلاف كبير بين الجزيرتين فهذه جبلية بركانية والأخرى

سهلة منبسطة ... ما زال أمامنا عشرة أيام طوال لنصل إليها

— ولكن جزر المحيط الهادى تتشابه كثيراً ...

— إلى حد ما .

فتنه الطبيب ما كفيل وسكت فالتفتت إليه بعد قليل وقالت :

— إننى لا أحب العيش فى جزيرة باجو باجو هذه لأن المبشرين يعانون مشقة كبيرة فى تأدية واجبهم فيها . فهى على الرغم من صغرها تمر بها بواخر كثيرة تحمل بحارة من مختلف الأجناس وهذا مما يفسد خلق السياميين فيها ... أما عندنا فالأمر يختلف عن ذلك إذ أن بعد الجزيرة يحميها من الشرور التى يحملها البحارة إلى السكان .. نعم لدينا بعض التجار الأوروبيين ولكننا نراقبهم جيداً فإذا ما حاد أحدهم عن الطريق القويم ضيقنا عليه سبل العيش حتى يلوذ بالفرار ...

قالت هذا وهى تصلح منظرها الذهبى ثم نظرت إلى الجزيرة ساهمة ... واستطردت بعد قليل قائلة :

— لقد انحط مستوى الأخلاق بين سكان هذه الجزيرة حتى أصبح عمل المبشرين بينهم مستحيلاً وأحمد الله كثيراً على أن الحظ قد أبعدنا عن أمثال هؤلاء الناس ...

لم يجيبها الطبيب بل ظل ساهماً يفكر فيما كان يسمعه من قبل عن هذه المرأة وزوجها من أنهما قد وصلا بفضل مهارتهما إلى درجة لم يصل إليها مبشر من قبل .. فشعر على رغم من احترامه للدين بنفور شديد منهما ... ولكن ما حيلته وقد جمعت بين الأسرتين رحلة الباخرة ولا سبيل إلى الخلاص !! ..

سمعها تقول :

— كان أول ما فعلناه في بدء حياتنا التبشيرية أن حرمننا الرقص على السكان وكانوا يحبونه إلى درجة الجنون .
أجابها بفتور :

— كنت في شبابي أرقص كثيراً ...

نظرت إليه مستهجنة وقالت :

— لقد لاحظت ذلك فعلاً حينما سمعتك بالأمس تدعو زوجتك إلى الرقص .. لست أرى ضرراً كبيراً في أن يراقص الرجل زوجته ومع ذلك حمدت الله حين رفضت السيدة ما كفيل دعوتك .. فللمناسبة الحاضرة خير لنا أن نبتعد عن الجميع وألا نشاركهم في شيء .

التفت إليها دهشاً وقال :

— أية مناسبة تقصدين ؟

أقلت عليه نظرة سريعة من وراء منظارها الذهبي ولم تجبه على سؤاله بل استمرت في حديثها :

— الرقص بين البيض أمر مختلف ولكنني أتفق مع زوجي في انتقاد الرجل الذي يسمح لزوجته أن تراقص غيره .. أما رقص السيامييين فشهوائي . يقود حتماً إلى السقوط .. ولنشكر ربنا الذي سدد خطواتنا بفضل ما تحمله قلوبنا من إيمان بالكتاب المقدس فاستطعنا بقدرته عز وجل أن نمحو هذا الرقص البشع من بين السكان ...

إذ ذاك أقبلت السيدة ما كفيل ووقف ثلاثتهم يرقبون الباخرة وهي

تدخل الميناء في هدوء وتلقى بمراسيها بجوار الشاطئ .. بدت الجزيرة الآن واضحة أمامهم وهي قرية صغيرة لم تجد المدنية بعد سبيلا إليها .. فالنخيل يتعالى كثيفاً نحو السماء فتنعكس صورته على صفحة المياه الرائقة .. والأكواخ منتشرة هنا وهناك وسكان الجزيرة رجالاً ونساء يسرون عرايا إلا من مئزر صغير حول الخصر .. وبدت الأرض بمن فوقها كصورة حية للحياة الفطرية الخلابة .

نزلت جماعة من الركاب تجول في الجزيرة قطعاً للوقت إلى أن يحين قيام الباخرة مرة أخرى .. ومن بين من نزلوا الدكتور ما كفيل وزوجته ثم السيدة دايقسن زوجة المبشر ولم يلبث أن تبعهم رابعهم وهو المستر دايقسن وحمل إليهم أخباراً غير سارة فخواها أنهم سيضطرون جميعاً إلى البقاء في هذه الجزيرة ثلاثة أسابيع في حجر صحتهم إذ انتشر في إحدى الموانئ التي مروا بها وباء خطير انتقلت عدواه إلى بحارة الباخرة وسيدوم هذا الحجر الصحي إلى أن يزول خطر انتقال العدوى إلى ميناء آخر .

كان المبشر رجلاً هادئاً لا يتكلم إلا قليلاً .. يكثر من القراءة ويميل إلى الوحدة طويل القامة نحيف الجسم ، يبرز عظام الوجه كالمومياء ، ليس في وجهه من معاني الحياة إلا شفاء ممثلة تدل على شعور متقد ..

دائم الوجوم يبدو الأسى في عينيه العميقتين . وأكثر ما يلفت النظر فيه شخصية قوية تبدو كأنها أتون من النيران المكبوتة تبعث في الناظر إليه شعوراً من الخوف والوجل .

كان في بدء حياته قساً صغيراً اتخذ التبشير مهنة له . وما زال في جد واجتهاد حتى سما على أقرانه . واستقر به المقام في جزر الهند الشرقية ف قضى فيها خمس سنوات مؤدياً رسالته في إخلاص . وهناك التقى بمبشرة أخرى هي مسز دايقسن وجمعت بينهما وحدة العمل فتزوجها . . وكان دايقسن المبشر شجاعاً لا يعرف الخوف . ملاكاً في رحمته جباراً في نعمته . لا يني عن نجدة مريض أو إغاثة ملهوف . وطالما عرض حياته للأخطار واقتحم العواصف في الليل البهيم تحت السيول والأمطار لعيادة مريض أو لزيارة فقير .

وطالما حاولت زوجته ، على الرغم من شعورها الديني القوي ، أن تثنيه عن تهوراته هذه راجية منه أن يؤجل رحلاته المخوفة بالأخطار إلى الصباح فيجيبها قائلاً :

— كيف يمكنني أن أزرع في قلوب الناس الإيمان بالله وأن أغرس في نفوسهم الثقة به إذا لم أكن مثلهم الأعلى !! أو تظنين أن الله سيتخلى عني وأنا أقتحم المخاطر من أجله . ؟ إن الرياح تهب بقدرته والأمطار تهطل بأمره عز وجل .

أما إذا اقترب إنسان معصية فيعاقبه المبشر عليها عقاباً صارماً ويحرم

على بقية الناس معاملته حتى يحل به الفقر ويعضه الجوع فيعود إليه
ذليلاً مستغفراً ، ولكنه مع هذا ما كان يقبل الاستغفار بل يمعن في
العقوبة والتنكيل حتى يقضى الخطيئة المسكين ما تبقى له من الحياة
فقيراً جائعاً مكفراً عن خطيئته .

فكرت الجماعة ، وقد اضطرت ، تحت حكم الظروف إلى البقاء في
جزيرة پاچو پاچو ثلاثة أسابيع ، أن تبحث عن مأوى لهم طيلة هذه
المدة . . . واكفهرت السماء في أثناء تباحثهم وسقطت قطرات من الماء
منذرة بأمطار شديدة . فأسرع الكل إلى الخان الوحيد في القرية .
وكان هذا الخان منزلاً صغيراً اتخذ صاحبه جزءاً منه متجراً وأعد الغرف
القليلة الباقية برياش حقير كماوى لمن يرغب من المسافرين .

حين استقر المقام بالجماعة في الفندق الحقير الذي نزلوا به خرج الطبيب
ما كفيل للرياضة قليلاً وتفقد الحديقة الجميلة المحيطة بالنزل . رأى
هورن صاحب الخان عند الباب يحدث ضابطاً قذراً الملبس قبيح الشكل
ولم يكن الطبيب يرتاح إليه ولذا فكر في أن يمر من الباب دون أن
يحييه . ولكن ما كاد الضابط يراه حتى بادره بالحديث قائلاً :

— إنه حظ سيئ يا سيدي الطبيب أن يعوقكم الحجر عن مواصلة السفر .
فوقف الطبيب عن السير قليلاً ولم يجب ، فاستطرد الآخر قائلاً :

— لقد أحضرت إلى هذا الفندق الأنسة سادى تومسون التى
كانت معكم على الباخرة فى طريقها إلى آبيا . . .
وأشار بأصبعه إلى سيدة تقف إلى جواره . . كانت سادى تومسون
فى السابعة والعشرين من عمرها ، بدينة الجسم ، جميلة على الرغم
من طبقات الطلاء التى تكدست على وجهها . وترتدى ثوباً أبيض
يكشف عن أذرع غليظة وصدر عار . وقبعها الكبيرة مزينة بمختلف
الزهور الصناعية ذات الألوان الزاهية . ولم يكن مظهرها على العموم
يوحى باحترامها .

التفت سادى تومسون إلى الطبيب وقالت وهى تشير إلى صاحب الخان:
— إن هذا الرجل يحاول أن يقتنص منى ريالاً ونصف ريال أجراً
لإقامتى فى حجرة قدرة .

وقبل أن يجيب الطبيب بكلمة التفت الضابط إلى هورن قائلاً :
— يجب أن تتساهل معها قليلاً يا هورن فهى صديقتى وليس فى
استطاعتها أن تدفع أكثر من ريال واحد .
فابتسم صاحب الخان مجيباً :

— ما دامت صديقتك يا سيدى فسنكرمها كل الإكرام فدعنى
حتى أستشير زوجتى فى أمر هذا الريال . . .
فصرخت مس تومسون فى وجهه قائلة :

— لا تحاول أن تخدعنى أيها الرجل وخير لك أن تمارس أساليبك

الشیطانية مع سواى . والله لو حاولت المستحيل ما أعطيتك أكثر
من هذا . . .

ابتسم الطبيب ما كفى لجرعتها فى المساومة . وتنهى صاحب الخان
وأجاب :

— فليكن ! ادفعى الريال وخذى الحجرة . . .

ابتسمت مغتبطة وقالت :

— هذا هو الكلام المعقول . ومن أجل كرمك سأقدم لك قدحاً
من الشراب . فهاؤوا جميعاً إلى حجرى لأسقيكم زجاجة من الخمر المعتق .
وسارت تهوول مسرعة إلى حجرتها . .

وفى اليوم التالى جلست الجماعة حول مائدة العشاء يتحدثون .
قالت زوجة المبشر :

— من دواعى الخجل أن نرى سكان هذه الجزيرة يروحون
ويجيئون عرايا إلا من غطاء رقيق لا يكاد يحجب من أجسامهم شيئاً .
ولما كان الطبيب ما كفى لجرعتها قد جبل على التسامح والغفران
فقد أجاب :

— ولم لا والجو هنا شديد الحرارة وهذا فى رأى هو الرداء الوحيد
الذى يلائم مناخهم .

غضب دايفدسون لهذا القول فأجاب :

— يدهشني من رجل مثلك أن يرى هذا الرأي . . . فكيف
تنتظر منهم أن يأخذوا بتعاليم الدين وأن تتغلغل هذه التعاليم في
نفوسهم وهم يسرون نساء ورجالا عرايا هكذا؟! لن تصل الفضيلة
إلى هؤلاء الناس ولن تهذب المدنية طباعهم الفطرية حتى يرتدى كل
فتى وفتاة في العاشرة من عمره رداءً مناسباً يحجب أجسادهم العارية عن
العين . . . لقد علمنا السياميين في آفيا هذا المبدأ فساروا عليه واتبعوه
فارتقت مداركهم وتهذبت نفوسهم وتمكن الدين من قلوبهم .

وسكت المبشر قليلاً وقال في حزن :

— لقد تعيينا عن آفيا عاملاً بأكمله وتركنا مكتب التبشير هناك في
أيدي السياميين ولذا أخشى أن تكون الأمور قد تعقدت والمبادئ
الفاسدة قد تسالت إلى الدين على أيديهم .

وذهب الحزن عن وجه المبشر والتمعت عيناه بنور العزيمة والشدة
وقال بصوته الرنان :

— أقسم بخالق العالم وسيد الكون لو أني عدت إلى آفيا ووجدت
الخطيئة قد تسربت إلى بعض القلوب لأقتلعن شجرة المعصية وألقي بها
إلى النيران وأرقبها وهي تحترق دون شفقة أو رحمة على المذنبين .
وارتجف الطبيب لهذا القول الرهيب واسترق النظر إلى زوجته فراها
تطأطئ رأسها خضوعاً وقد احمرت وجنتاها بلهيب الإيمان . . . وشعر
ما كفيل بقلق في نفسه وتمنى لو أن المبشر تحدث في موضوع آخر . .

ولكن دايقوسن بقى واقفاً بقامته الطويلة المنتصبة يستعيد ذكريات ما قاساه فى الماضى من أجل المبدأ الأسمى الذى يعمل له .

— لقد تعبنا كثيراً فى نشر المسيحية بين الناس وإنى لأذكر أنه حين نزلنا بأبيا للمرة الأولى قامت فى طريقنا الصعوبات لجهل السكان حتى بدا نشر الدين بينهم مستحيلاً . . كانت تلك المناطق البعيدة عن العمران يخيم عليها ظلام الخطيئة ولكننا جاهدنا فى صبر وحزم بفضل ما فى قلوبنا من إيمان . . وكثيراً ما تسرب اليأس إلى نفسى . فكنت أركع لله باكياً مستغفراً لشعورى بعجزى عن أداء مهمتى . . إذ ذاك تقوم زوجتى وتأتى بالكتاب المقدس وتقرأ لى حتى تجف دموعى وتهدأ ثائرتى ثم تربت على كتفى قائلة : لا تيأس هكذا سننقذهم على الرغم من نفوسهم الشريرة . فتدب الشجاعة فى قلبى من جديد . . وأخيراً توج عملنا بالنجاح وعلمناهم أن الإثم ليس فقط فى الزنى واستباحة النساء بغير حق ، بل الإثم أيضاً فى السرقة والكذب وفى السير بأجساد عارية . . وحرمنا عليهم الرقص والبسناهم ثياباً لائقة .

دهش الطبيب ما كفيل فسأله :

— وكيف أمكنك أن تعلمهم كل هذا ؟

— بالعقاب . . فالطريقة المثلى لتعليم قوم جهلاء هى أن تعاقبهم على ما يقتربون من ذنوب . . كنت أعاقبهم إذا ما زنوا أو رقصوا . . كنت أعاقبهم إذا انقطعوا عن الصلاة أو قعدوا عن حفظ الدين . .

وكنت أفرض عليهم غرامات مالية وأجعل لكل خطيئة غرامة تختلف باختلاف الجرم .

فحنت الجماعة رؤوسهم احتراماً لقول المبشر وتساقطت الأمطار في الخارج بشدة فبعثت الرهبة في قلوب الجميع :

إذ ذاك تعالى في الجو نغم موسيقى خليع تخالطه ضحكات بعض السكارى منبعثة من حجرة سادى تومسون في الطابق الأسفل . فذهبت هذه الضجة الخليعة برهبة الموقف .

التفت دايفدسن إلى الجماعة سائلاً :

— ما هذا ؟

فأجاب الطبيب :

— إنها مس تومسون وأصدقائها .

وأنصت الكل فلم تلبث الموسيقى أن كفت وبقيت الضحكات ترن عالية بين جدران الخان . . فبدى التأفف على وجه المبشر والتفت إلى زوجته قائلاً :

— هلمى بنا إلى النوم ! .

قال الطبيب :

— لم يحن ميعاد النوم بعد .

— إننا نقرأ الانجيل كل ليلة وهذا يتطلب منا وقتاً طويلاً .

في مساء اليوم التالي جلست الجماعة حول مائدة العشاء يتحدثون
كالعادة فقال المبشر :

— ما دامت الأقدار قد حكمت بالبقاء هنا فيجب علينا إذاً أن نقسم
الوقت تقسيماً طيباً . . فلنجعل بعض الوقت للقراءة وبعضه للتعبد وما
بقي للنزهة .

وفي تلك الدقيقة تعالت في الجو موسيقى الأمس . . ورددت جدران
الخان ضحكات السكارى وصوت سادى تومسون وهى تغنى بينهم
أغنية خليعة . . وبدأ الغضب واضحاً على وجه المبشر ثم ما لبث أن
سبح في التفكير . . وفجأة التمت عيانه بنور المعرفة فقام واقفاً وقال :

— لقد عرفتُها ! !

— من ؟ ؟

— تومسون هذه ! !

قالوا :

— من هى ؟ ؟

فأجاب :

— إحدى بنات الهوى اللواتى طاردتهن حكومة هونولولو . .
فلما ضاقت بها سبل العيش رحلت على الباخرة باحثة عن مكان آخر
تمارس فيه مهنتها الشائنة .

وسكت المبشر قليلاً ثم قال فى صوت رهيب :

— لن أسمح لمثل هذه المرأة أن تعيش معنا تحت سقف واحد
ولا أن تنشر شرورها بين الناس . . وسأطردها من الخان إلى حيث
تعيش مشيلا لها !!

حاول الطبيب ما كفيل أن يثنيه عن عزمه و بين له خطر التعرض
لها وهي في صحبة السكارى فلم يذعن لرأيه . . فصعاب العالم أجمع ما كانت
لتمنع هذا المبشر عن أداء مهمته .

واندفع المبشر ذاهبا إليها . . وخيم على وجوه الجالسين الوجوم
والقلق . . وأصغوا إلى وقع أقدامه باهتمام فصيح ما توقعوه . . فما كاد
يدخل على سادى وزملائها ويعترض عليهم حتى هب السكارى حائقين
وبصقوا في وجهه ثم حملوه وقذفوا به خارج الحجرة . . وسمعه الدكتور
ما كفيل وزوجته وهو يقوم من سقطته ويعود إلى حجرته بخطأ ثقيلة .
وسقطت الأمطار في الخارج واشتد سقوطها حتى صارت سيولا
جارية .

في صباح اليوم التالى خرجت السيدة دايقدسن في صحبة زوجة
الطبيب للرياضة . . وفي طريقها الى الخارج تقابلتا مع سادى تومسون
فقالتا لهما ضاحكة :

— صباح جميل أيتها السيدتان . . كيف حال المبشر؟؟ . .
لعله عوفى من سقطة الأمس !! .

وقهقهت ضاحكة . . فمرت السيدتان في هدوء دون أن تجيب
إحداها بكلمة ، ولكنها تبعتهما إلى الخارج وما زالت تضحك وتلقي
إليهما بالنكات البذيئة حتى ثارت ثورة السيدة دايفدسن والتفتت
إليها قائلة :

— إياك والتحدث إلينا مرة أخرى .

فبدت الدهشة على وجه سادى وقالت :

— إننى لم أتحدث إليكما قبل الآن ولم أطلب من زوجك أن
يتدخل فى شؤونى كما فعل أمس !! .

وعلى الرغم من الاعتداء الذى وقع أمس وتمكم اليوم أصر المبشر
على أن يقابل مس تومسون مرة أخرى . . فأرسل إليها الخادم فعاد
بعد قليل يقول إن سادى ترحب بزيارته ما دامت هذه الزيارة فى غير
الأوقات التى تستقبل فيها زائريها من الرجال . .

ونزل ردها على الجماعة نزول الصاعقة فصمتوا جميعاً ، ولاحت على
شفتى الطبيب ما كفىل بسمة ساخرة أخفاها سريعاً خوفاً من غضب
زوجته . . . وبقى دايفدسن جالساً فى مقعده ساها مفكراً ثم قام فجأة
ودون كلمة واحدة خرج من الحجرة وهبط إلى الطابق الأسفل حيث
تسكن سادى تومسون . . وبقى معها ساعة من الزمن عاد بعدها وقد
اتقدت عيناه حقداً وغضباً . . وقال :

— لقد أعطيت هذه المرأة فرصة أخيرة لترجع عن غيها فلم أفصح ..
إنها الرذيلة المجسمة ..

وسكت قليلاً ثم بدا العزم على وجهه حين أكمل حديثه :
— والآن سأؤدبها بالسوط الذى أدب المسيح به المرايين وطردهم
من معبد الرب الأعلى ...

وسار فى الشرفة جيئةً وذهاباً وقد انقبضت أساريه والتوت شفتاه
فى غضب شديد حين قال :

— سأعطيها درساً قاسياً وسأتبعها ولو ذهبت إلى نهاية الأرض ...
وسقطت الأمطار فى الخارج وازداد سقوطها شدة كأنها نذير بشر
قادم ...

ابتدأت جهود المبشر فى محاربة سادى تومسون بأن طلب إلى
صاحب الخان أن يطردها من بيته ولكنها كانت قد دفعت أجر إقامتها
مقدماً ولذا كان من المستحيل طردها .. ولكن هورن وعد بأن يمنع
زائريها الرجال من الدخول إليها إرضاءً لدايقدسن .

وفى المساء انبعثت نفس الموسيقى من حجرة المرأة، ولكن لم تخالطها
أصوات المرح السابق .. وكأن هذه الموسيقى رمز للوحدة المملة التى
تعانيها فى ليلها الطويل ..

وبدأ التغير على سادى منذ هذا اليوم فقد ذهبت ابتسامتها التهمكية

كما تلاشى مرحها المعهود . . وخيم على الخان جو من السكون ما كان
يعكره سوى الأمطار الساقطة . .

وفي ذات يوم وهم جلوس على مائدة الطعام دخلت عليهم سady
تومسون بوجه ممتقع من الغيظ وانفجرت صائحة في وجه المبشر :

— أيها الكلب الحقير والرجل الكاذب المنافق ماذا فعلت بك
حتى تجعل الحاكم يأمرني بالعودة إلى هونولولو ؟ ؟ . .

حمل المبشر مقعداً وذهب به إليها وهو يقول في أدب :

— ألا تجلسين قليلاً ؟ ؟ فاني أريد أن أحدثك . .

ألا لعنة الله عليك يا ابن الزنى !!

— لا يهمني ما تكييلينه لى من شتائم ولكنى فقط أرجو منك أن

تتذكرى أن فى الحجره سيدات لا يصح التلفظ أمامهن بمثل هذه الكلمات . .

امتلات عيناها بالدموع وظلت تصارع البكاء وتسكته فى قلبها

حتى احتقن وجهها وتورمت عيناها فتدخل الطيب قائلاً :

— ماذا حدث ؟ ؟

— لقد أرسل الحاكم إلى رسولا يأمرني بالعودة من حيث أتيت

على أول باخرة . .

التمعت عينا المبشر وبقى وجهه جامداً وقال :

— لا أظنك تنتظرين من الحاكم أن يتركك تعيشين هكذا

بين الناس . .

فصرخت في وجهه :

- أيها الكاذب أتريد أن تحمل الحاكم تبعه أمره وأنت الذي

دفعته إليه ؟؟؟ !!

- لا أريد أن أخدعك ولذا أعترف لك بأنني شجعته على

التصرف المناسب حيالك ..

- لماذا لا تتركني وشأني إنني لم أسيء إليك ؟ !!

- لو أسأت إلى لكنت آخر من يعاقبك على إساءتك ..

- أو تظنني أحب الإقامة في هذه الحظيرة القذرة ؟

- إذا لماذا تشكين من العودة ؟

فامتلات عيناها بالدموع مرة أخرى واندفعت إلى خارج الحجرة ..

وفي المساء استدعت سادى تومسون الطبيب ما كفيل لعيادتها

فذهب ملبياً الدعوة فوجدها تجلس وحيدة في حجرتها بوجه شاحب

وأعين قرحها البكاء الطويل .. واختلطت ألوان الطلاء على وجهها

فبدت في مظهر يثير الشفقة ... قالت للطبيب إنها ذهبت لمقابلة الحاكم

وألحقت في رجائه أن يسمح لها بالبقاء بضعة أيام آخر حتى تواصل

سيرها إلى الوجهة التي تقصدها فوعد أن يبقيا إذا وافق المبشر ..

وطلبت من الطبيب أن يحدث المبشر في أمر بقاءها واعدة أن تكون

طيلة إقامتها في الجزيرة مثالا صالحا للاستقامة والشرف ..

ولكن المبشر رفض رجاء الطبيب وأصر على أن تعود إلى هونولولو

على أول باخرة .. فقد كان من المستحيل أن يحيد هذا المبشر عن رأيه
لأن قلبه قد من صخر .

حين جلست الجماعة للراحة بعد الغداء طُرق الباب ووقفت ساذى
على عتبة .. اتجهت إليها العيون فبدت الدهشة على وجوه الجميع لما
طراً عليها من تغيير .. فلم تعد المرأة الضاحكة غير المهذبة التي تقذفهم
بالنكات .. بل صارت فتاة مروعة قلقة محطمة .. وشعرها يتهدل فوق
كتفها دون عناية أو تصفيف .. ورداؤها قديم ممزق ووجهها باهت
لا أثر للطلاء فيه .. ووقفت هكذا على الباب لا تجترى على الدخول ..
سألتها زوجة المبشر في خشونة :

— ماذا تريدن ؟؟

قالت في صوت متهدج فيه ذلة وانكسار :

— هل تأذنين أن أتحدث قليلاً إلى سيدى المبشر ؟؟

فقام المبشر وسار إليها مرحباً :

— تفضلى يا آنسة ! . هل من خدمة أقدمها لك ؟؟

— إننى آسفة لما بدر منى من ألفاظ غير مهذبة .. ولكنى كنت

غاضبة ولم أشعر بما قلت فسأحبنى !! ..

— لا تحزنى فقد اعتدت أن أتحمّل كثيراً ..

فترددت قليلاً ثم استطردت :

— لقد غلبتني على أمرى وها أنا أعتزف بالهزيمة فلا ترسلنى إلى
هونلولو . .

تلاشت الابتسامة فجأة عن شفتى دايقدسن وقطب جبينه وبدت
القسوة فى عينيه وقال :

— لماذا ترفضين العودة ؟ ؟

— إن أهلى هناك ولا أريد أن يرونى على هذه الحالة المزرية . .
وسأبدأ حياة جديدة وسأ كفر عن خطاياى فارحنى . .

فازداد تقطيب جبينه وقال :

— لماذا ترفضين العودة ؟ ؟

— لقد قلت لك الآن . .

فاقترب منها بخطوات بطيئة ووقف أمامها وهو يحرق فى وجهها بعينيه
الحادتين وكأنه يريد أن يخترق الحجب إلى قلبها . . قال :

— إنك تكذبين . . فلعل السجن ينتظرك هناك ! ! . .

صرخت وسقطت أمامه على الأرض وهى تحتضن قدميه بين ذراعيها . .

قالت :

— بربك لا ترسلنى إلى هناك . . وأقسم بالله العظيم أن أنبذ

حياتى السابقة وأتبع الصراط المستقيم . .

وجعلت ترسل سيلا من الاستعطاف والاسترحام كان يقطعه الفينة

بعد الفينة بكأؤها ونحيبها . . فانحنى فوقها وأخذ وجهها بين يديه ليحملها
على النظر إليه وقال :

— أهو السجن ؟ ؟

— نعم . . ولو قبضوا على لقضيت بين جدرانها سنوات ثلاثاً . .
فتمجّدت ملامح المبشر وترك وجهها من بين يديه فسقط رأسها
بجوار قدمه . . وجعلت تبكي بحرارة وشدة وهو ساكن لا يجيب . .
فتقدم الطبيب ما كفيل من صديقه وقال في رقة :

— هذا يغير من مجرى الأمور كثيراً . . فما دامت قد اعترفت
بالحقيقة وانتوت أن تبدأ حياة جديدة فامنحها فرصة أخرى . .
فسكت المبشر قليلاً ثم أجاب :

— نعم سأمنحها فرصة أخرى كما تقول فما دامت ترغب في التكفير
فلتعد إلى السجن حالاً وتتقبل عقابها كاملاً . . وحين تخرج منه تبدأ
حياة جديدة . .

فصرخت سادى صرخة الفزع وسقطت مغمى عليها وركع المبشر
بجوار جسدها الملقى يصلى ويذرف الدموع من عينيه ويبتهل إلى الله أن
ينقذ روح المرأة الخاطئة . . .

وسقطت الأمطار واشتد سقوطها فازداد المكان حزناً وكآبة .

وفي المساء ذهب الطبيب ما كفيل لعيادة الأنسة تومسون فما كادت

تراه حتى طلبت منه رؤية البشر . . فقال لها :

- يا بنيتى المسكينة ليست هناك فائدة من رجائه فهو قاسٍ
كالصخر الأصم . .
فقلت في ذلة :

- ولكنه لن يرفض الحضور لرؤيتي . .

وحين دخل البشر بادرته باكية وقالت :

- لقد كنت امرأة خاطئة وأريد الآن أن أ كفر عن ذنوبي . .
سأذهب إلى السجن مختارة . . فاجلس إلى جانبي وتقبل اعترافى وأسمعنى
دعواتك الصالحة . .

وأمام الانقلاب الفجائى لهذه النفس العاصية التى ما كان يرجى
لها شفاء تقهقر الدكتور ما كفيل احتراماً للموقف وخرج من الحجرة
وأوصد الباب خلفه . .

ولم يغمض جفن للطبيب طوال هذه الليلة فجلس فى فراشه محملاً فى
الظلام المنتشر فى الحجرة . . إلى أن سمع قرب الفجر خطوات البشر
وهو عائد من حجرة مس تومسون . . ولم يأو دأيقدهن إلى فراشه ،
بل بقى إلى الصباح راكعاً يصلى من أجل المرأة المذنبة . .

كان تبدل حال مس تومسون بعد ذلك عظيماً . . فلم يجد الطلاء
إلى وجهها سبيلاً ، وكانت تجلس فى حجرتها ليل نهار وقد تهدل

شعرها على كتفها وتقرح جفناها من كثرة البكاء . . ولم تعد تطيق
البعد عن دايقسن دقيقة واحدة فتدعوه في كل لحظة وتجد في صحبته
وفيا يقرأ لها من الكتاب المقدس بلسمًا شافيًا لجرح نفسها المخطئة . .
كانت مثال التوبة الجميلة . .

وفي ثلاثة الأيام الأخيرة قبل رحيل سادى انقطع المبشر إليها فما كان
يفارقها إلا لتناول الطعام مع الجماعة وما كان يصاب من طعامه إلا النزر
اليسير . . وبدا القلق واضحًا في عينيه وازداد شجوب وجهه . . لقد
أصبح نهبًا لعواطف نفسانية متضاربة . .
وقال يومًا يحدث الجماعة :

— لقد بُعثت سادى تومسون بعثًا جديدًا . فقد تحول سواد نفسها
الحالك إلى بياض ناصع كبياض الجليد . . إن جمال توبتها ليملاً نفسى
رهبة وخشوعًا . .
فقال الطبيب :

— وهل يطاوعك قلبك بعد ذلك على إرسالها إلى السجن لتقاسى
عذاب الحياة سنوات ثلاثًا بين جدرانها . . حسبتك أشفق من أن
ترتكب جرماً مثل هذا !!
فعاد الجمود إلى وجه المبشر وقال :

— نعم سأرسل بها إلى السجن لتقاسى عذابه فتتطهر نفسها مما
ألم بها من دنس . . إني أعلم ما سينالها فيه من عذاب . . فستجوع

وستضرب وستكالم لها الإهانات بسخاء . . ولكن ليكن هذا كله
تضحية منها وتكفيراً عن ذنوبها الماضية . . وسوف تتعذب نفس طيلة
هذه السنوات بقدر ما سيعذب جسدها في السجن . . .
فثارت ثورة الطبيب ولم يعد يقوى على كتمان شعوره فصرخ في
وجه المبشر :

— أيها الوحش !!

— ولكنك لا تفهم وجهة نظري ، لأن الله قد أعماك عن رؤية
الحق . . لقد أخطأت هذه المرأة واقترفت في حياتها آثاما لا حد لها ،
فعليها أن تتعذب ومن الواجب أن تتقبل عذاب الدنيا لتنال رضا الله
وتهدج صوته واغرورقت عيناه بالدموع قائلاً :

— إننى أصلى من أجلها . . أصلى بقوة وإيمان وأضرع إلى الله أن
يقود روحها إلى الطريق السوى . . بل أضرع إلى الله أن يغرس في
قلبها الرغبة في العذاب والتكفير حتى إذا ما عفوت عنها رفضت عفوى
ومغفرتى وذهبت إلى السجن فرحة مستبشرة . . . أريد منها أن تعتقد
أن عذاب جسدها طوال سنوات السجن هو آيات الشكر التى تقدمها
على مذبح المسيح الذى وهب حياته من أجلنا جميعا .

ومرت الأيام متراخية وكل من فى الخان يشعر بالاحترام العظيم
للمرأة التى كفرت عن ذنوبها . . . وبدت لهم فى استسلامها لمصيرها

كضحية تنتظر تقديمها قربانا على مذبح الآلهة وهى وادعة مستكينة . . .
وانتهى الأمر أخيراً بأن تبجر فى صباح اليوم التالى على الباخرة العائدة
إلى هونولولو . فـشعر نـزلاء الخـان بـراحة لقرب ساعة الرحيل . . فقد
مرت الأيام الأخيرة والكل فى ألم نفسانى شديد من أجلها .

وفى هذه الليلة نام الدكتور ما كـفيل مبكراً على غير عادته إلى أن
أيقظه صاحب الخان عند الفجر . . وطلب فى سرعة أن يرتدى معطفه
ويتبعه . . . وخرج الاثنان فى الليل البهيم تحت الأمطار المتساقطة . .
وتبع الطبيب صاحب الخان حتى وصلا إلى الخليج . . وكانت هناك
جثة ملقاة عرف فيها الطبيب جثة المبشر فقد كان مذبوحا من الأذن إلى
الأذن وما زالت يده ممسكة بسكين فى صلابة وشدة مما يدل على أن
المبشر قد قطع رقبتـه بيده . .

وخف سقوط الأمطار وبدا صوت قطراتها حزينا خافتا كموسيقى
تعزف لحن الفناء .

حملت جثة المبشر إلى معرض الموتى وأنت زوجته على عجل لتودع
زوجها الراحل . . . وم أدهش الدكتور ما كـفيل ثباتها وهى تنظر إلى
جثة زوجها فى هدوء . . وخرجت وقد علا وجهها الاصفرار ولم تذرف
عينها دمعة واحدة . .

وحين وصلت الجماعة إلى إلخان أدهشهم صوت الموسيقى الخلية
يتعالى ثانية من حجرة سادى تومسون . . وكانت ضحكاتها تملأ المكان.
ووقفت على باب حجرتها وقد كشفت عن أذرعها وصدرها وطلت
وجهها بمختلف المساحيق والأصباغ . . وما كادت تراهم حتى انفجرت
ضاحكة وجمعت بصقة كبيرة ألقتها على وجه زوجة المبشر فطأطأت هذه
رأسها خجلا . واندفعت تجرى إلى الطابق الأعلى .

فثار غضب الدكتور ماكفيل لهذا السلوك الوقح فدفع بالمرأة إلى
داخل حجرتها ساخطا عليها ، فقالت :

— لا تحاول هذه الألعاب أيها الطبيب . . لماذا تدفعنى هكذا ؟
وماذا تريد أنت أيضا من دخولك حجرتى ؟ ؟ ؟

صرخ فيها :

— ماذا تقصدين أيتها المرأة الشريرة ؟ ؟

فانفجرت شفتاها عن ابتسامة فيها كل معانى الزراية والاحتقار وقالت :

— أيها الرجال . . أيتها الخنازير الحقيرة . . إنكم جميعا سواء
حيوانات لا أكثر ولا أقل ! ! !

فشهق الطبيب وقد فهم كل شىء .



الأحمر

للكتاب الانجليزى الكبير سمر ست موم

وقف الربان على ظهر الباخرة وهو يضع يده فى جيب سرواله بصعوبة
فقد كان رجلاً بدينًا من الصعب أن تتحرك يده فى سهولة .. وأخرج
ساعة كبيرة من الفضة نظر إليها ساهماً ثم رفع رأسه إلى الشمس الغاربة
فى منحدر الأفق .. واستقرت عيناه أخيراً على الجزيرة الصغيرة التى
تقرب منها السفينة .. كان يعلم أن هناك ممراً بين الصخور الكثيرة
يصلون منه إلى الشاطئ .. أما وقد جعلت الشمس تغيب وجاء الظلام
ينشر جناحيه فقد أصبح من المتعذر عليه أن يهتدى إلى هذا الممر ..
ولكنه لم ييأس بل ظل واقفاً يرقب الصخور لعله يجد ضالته المنشودة ..
إذ ذاك أحس بالباخرة تقف تدريجاً فالتفت إلى مساعدته مستفسراً ..
فأجاب :

— إننى لا أرى الممر يا سيدى نخير لنا أن نرسو هنا إلى الصباح
خوفاً مما قد نتعرض له من الأخطار بين الصخور الكثيرة المتناثرة فى
مياه هذه البقعة ..

قال الربان :

— ولكنى واثق من وجود هذا الممر .. ولست أفهم معنى لاختفائه
الآن .. ألا فأرسل بحاراً يتسلق القلع لعله يرى من أعلى ما لا نراه
من هنا ..

فنادى المساعد بحاراً صغيراً وألقى عليه أمر الربان فامثل الصبي
وتسلق القلع واستشرف هنا وهناك فلم ير شيئاً .. فنادى من أعلى معاناً
عجزه فتضايق الربان وبدت على وجهه علامات الغضب وخاطب مساعده
في خشونة قائلاً :

— دعه ينزل فهو غبي لا يفهم شيئاً .. ولو كان في استطاعتي
التسلق لرأيت الطريق في الحال ..

قال هذا وهو يرسل ببصره إلى القلوع الرفيعة العالية ثم ينظر إلى
جسمه بحسرة وتنهد .. فإن من السهل على شاب رشيق أن يقوم بهذا
العمل أما هو فقد حرمه الله نعمة الرشاقة بفضل ضخامة جسمه وترهله ..
وصرخ في الصبي غاضباً :

— انزل فما أنت إلا حمار غبي لا خير فيك ولا نفع ..

كانت الباخرة التي يقودها الربان صغيرة جداً لا تزيد حولتها على
سبعين طناً .. وتقوم برحلاتها حينما لا تكون في الجور ياح عكسية ..
وتسير بسرعة خمس عقد في الساعة .. وهي قديمة محطمة أكل عليها
الدهر وشرب .. فطلاؤها أبيض غطته الأتربة والأقذار .. وتنفوح منها

رائحة الزيت وثمار جوز الهند التي تحملها من جزيرة إلى أخرى .. فلم
تكن أحسن حالاً من ربانها القذر السمين .

وأخيراً وبعد تردد كثير امتثل الربان للأمر الواقع وأقر المبيت في
عرض البحر حتى تبزغ شمس اليوم التالي فيجد الطريق إلى الشاطئ
واضحاً .. وصرخ بصوته الخشن مرة أخرى ..

— ألقوا بالمرساة لنقضى الليل هنا ..

وتعالى في الجو صوت جلجلة السلاسل وأخذت المرساة طريقها إلى
القاع .. وسار الربان متثاقلاً إلى الداخل لأن العشاء في انتظاره على
المائدة .. فوجد مساعده قد سبقه إلى المائدة فما كاد يراه حتى صرخ
في وجهه :

— أى مضيعة للوقت حين اضطررنا غباوتك إلى قضاء الليل في
عرض البحر !! فلم يجبه المساعد بل استمر يتناول طعامه في هدوء ..
وجلس الربان يأكل أيضاً في صمت . ومر العشاء دون أن يتبادل أحدهما
كلمة مع الآخر ... وأخيراً قام الربان وأشعل غليونيه وعاد إلى سطح
السفينة .. كانت السماء صافية والنجوم تتلألأ فيها كقطع براقه من
الماس .. والجزيرة تبدو من بعيد بين طبقات الظلام كشبح صامت
حزين .. وساد السكون فلم يعكره إلا وقع أقدام البحارة الخفاة وهم
ينتقلون بخفة من جانب إلى آخر .. وألقى الربان بنفسه على مقعد كبير
يلأم ضخامته وترك غليونيه وأشعل لفافة من التبغ جعل يدخنها في هدوء

وهو يرقب الدخان المتصاعد من فمه .. وجاء البحارة وجلسوا حول قدميه
ومعهم آلاتهم الموسيقية ، ولم تلبث أن تعالت في الجو نغمات خشنة هي
أقرب إلى الضجيج منها إلى الموسيقى .. وانبرى أحدهم يغنى لحناً وطنياً
فقام الكل حوله يرقصون .. وجعلوا يقفزون ويحركون أطرافهم في
سرعة وهم يهزون أجسامهم بعنف فبدأ الرقص همجياً متوحشاً .. كانوا
كالحيوانات التي تتحرك مسوقة بالغريرة دون أن تفقه معنى لتحركها ..
وحل بهم التعب أخيراً فتمددوا فوق سطح السفينة وغلب عليهم
النعاس .. وساد السكون مرة أخرى فقام الربان متثاقلاً إلى حجرته
وتمدد فوق فراشه واستغرق في النوم ..

وفي صبيحة اليوم التالي حين غمر النور المحيط الهادئ وبدأت الشمس
قليلاً من وراء الأفق ظهر الممر إلى الشاطئ بين الصخور جلياً واضحاً
وسارت السفينة إليه تشق المياه من ورائها .. سارت متهادية وكأنها
تخشى أن تعكر صفو المياه الرائقة أو تقلق الأسماك الملونة الجميلة وهي
تتقلب في مرج بين الصخور .. ووقف الربان يرقب الشاطئ وهو
يقرب وقد ارتسمت على فمه ابتسامة الرضا والسرور ..
وهتف قائلاً :

— سأذهب إلى الشاطئ فأنزلوا القارب إلى المياه ..
وقفز إلى القارب وأعمل ذراعيه في المجاذيف حتى وصل إلى الشاطئ
حيث تتدلى أغصان نخيل جوز الهند إلى صفحة المياه .. كانت هذه

الأشجار متكاثفة متقاربة كأنها أشباح رهيبة تحرس تلك الجزيرة
وتخفيها عن العيون .. وترك القارب وسار فوق الأعشاب الطويلة وبين
الأشجار المتعانقة والابتسامة ما زالت ماثلة على شفثيه .. إلى أن وصل
إلى جدول رقراق يفصل بين أول تلك الجزيرة وبقيتها .. وعلى هذا
الجدول تمتد قنطرة ضيقة هي جذع شجرة كبيرة ، وكان المرور على هذا
الجذع يتطلب دربة ومرانة وقلبا جسورا وإلا اختل توازن السائر
وسقط في الماء .. ووقف الربان متردداً ثم لم يلبث أن تقدم وسار في حذر
شديد وهو يرقب خطواته باهتمام .. عند ذلك ارتفع صوت يخاطبه بلغة
إنجليزية ضاحكاً ويقول :

— مرحى .. مرحى ..

فدهش الربان إذ لم يكن يشعر بأن هناك من يراقبه .. ونظر أمامه
فرأى رجلاً أوروبياً يقف على باب الكوخ الوحيد الظاهر بين الأشجار ..
وقال الرجل :

— لقد كنت أرقبك وأنت تمر على القنطرة متردداً ، منتظراً أن
أراك تسقط في الماء .. ولكنك وصلت بسلام فاستحققت الإعجاب ..
فأجاب الربان :

— لا تخف عليّ !!

— لقد سقطت أنا نفسي من فوق هذه القنطرة مرات عديدة ..
وإني لأذكر مرة كنت فيها عائداً من الصيد ومعى بندقية وبعض الطيور

فاختل توازنى وسقطت فجأة فسقط معى كل ما أحمل .. ومنذ هذا اليوم
وأنا أصطحب خادماً يساعدنى على المرور ..

كان المتكلم رجلاً سويدياً جاوز الشباب بسنوات عدة .. طويلاً
نحيل الجسم .. وله لحية دب إليها المشيب ... وعيون واسعة يرتسم فيها
عدم الاكتراث ويلوح عليها ظل من الحزن .. وهو يتكلم الإنجليزية
برطانة سويدية .

واستمع الربان إلى ما يقول ثم سأله :

— هل أنت نلسن؟؟ — نعم ...

— لقد سمعت عنك كثيراً فى مدينة آبيا وقيل لى إنك تسكن
هذه الجزيرة .

ودخل الاثنان البيت الصغير فالتقى الضيف بجسده فى مقعد وثير ..
وفى الوقت الذى كان فيه نلسن منهمكاً فى إعداد الشراب والأقداح كان
الربان يجول بعينيه فى الحجرة يتأمل كل جزء فيها .. ودهش مما رآه ..
فالجدران مغطاة بأرفف كثيرة تكدست فوقها الكتب حتى وصلت
إلى السقف .. وفى أحد الجوانب معزف كبير عليه كتب موسيقية ..
وفى الجانب الآخر منضدة مستديرة تحمل عشرات من الجرائد والمجلات ..
وتذكر الربان ما قيل فى مدينة آبيا عن نلسن من أنه رجل غريب
الأنوار غامض الأخلاق .. فقد عاش فى بيته هذا ثلاثين عاماً ولم يعرف
من حوله عنه إلا القليل .

وحينما اقترب نلسن بالشراب التفت إليه وقال :

— لديك مجموعة هائلة من الكتب .

— إن فيها تسليتي الوحيدة .

— وهل قرأتها جميعاً ؟

— أكثرها .

فدهش الربان ، إذ معني ذلك أن نلسن رجل مثقف ، فلا بد إذا
من أن يتظاهر هو الآخر بالعلم والثقافة وقال :

— أنا أيضاً أحب القراءة وأستوعب كل يوم الجريدة الصباحية .

ولم يجب نلسن إلا بأن صب كأساً من الويسكى وقدمها إلى ضيفه
ثم أعقبها بلفافة من التبغ .. واستطرد الربان قائلاً :

— لقد وصلت مساء أمس إلى الخليج ولكني لم أهتم إلى الممر
الذي يقود إلى الشاطئ فبتنا في البحر .. إنها مهمة شاقة ولكن
ما حيلتي وقد أرسلني مخدومي بكمية كبيرة من البضائع إلى أحد عملائه
في الجزيرة ؟!

كان الربان يميل بطبيعته إلى السكون ولكنه لاحظ شيئاً في نلسن ..
شيئاً ضايقه دون أن يعرف كنهه .. فارتبك قليلاً ثم أراد إخفاء
ارتبائه فاندفع في الحديث .. وبقي نلسن صامتاً يحدق فيه بعينيه
الغامضتين الحزينتين وعلى شفثيه ظل ابتسامة خفيفة .

وقال الربان :

— إن منزلك جميل ومنسق ..

— لقد بذلت جهدي في تنميته وتجميله ..

ثم عاد السويدي إلى صمته بعد هذه الجملة ، وعاد الربان يردد النظر إلى الكتب الكثيرة فشعر بكراهية شديدة نحوها دون سبب معلوم .. واستطرد الربان :

— لا بد أنك تشعر بوحدة شديدة في هذه الجزيرة البعيدة .

— لقد قضيت فيها ثلاثين عاماً فاعتدت الوحدة بحكم الطبيعة .

وعاد السويدي إلى صمته مرة أخرى كما نصب معين حديث الربان ولم يجد مادة جديدة للثرثرة .. ولم تبد رغبة من أحدهما في معاودة الحديث فجعلا يدخنان في هدوء ونلسن يلحظ ضيفه من رأسه إلى إخص قدمه .

كان الربان رجلاً طويل القامة جداً ضخماً الجسم إلى درجة مضحكة .. فوجهه شديد الاحمرار ، تبرز من جبهته عروق ذات لون أزرق داكن .. أما تقاطيعه فغائرة في وجهه الغليظ الجهم .. وعنقه غائص بين لحم كتفيه .. عيونه محجرة كمن أدمن الشراب .. ورأسه أصلع إلا من بضع شعيرات في قذاله تدلت في غير انسجام فأكسبته مظهر الغباء .. وكان يرتدي قميصاً أزرق مفتوحاً يكشف عن صدر مغطى بطبقة كثيفة من الشعر الأحمر المجعد .. بطنه بارز وسرواله قديم ممزق .. وساءل نلسن نفسه عن شكل هذا الرجل في طفولته فتصور أن من المستحيل

أن هذا الفيل القبيح كان في طفولته صبيًا يجري ويمرح كبقية الأطفال .
وفرغ الربان من كأسه الأولى فقدم إليه صاحب الدار كأساً ثانية
فتناولها بيده الضخمة شاكراً ثم سأل نلسن قائلاً :

— وكيف أتيت إلى هنا ؟

فابتسم نلسن وأجاب :

— كنت مريضاً بالسل فحضرت للاستشفاء . . .

وقاطعه الربان متأففا وقال :

— لست أقصد ذلك ... بل أسألك كيف أتيت لتعيش في هذا

المكان وهذا المنزل عينه ؟

فأجاب :

— إنني رجل عاطفي !!

وارتسمت الحيرة على وجه الربان ولم يجب . . ولاحظ نلسن أن
ضيفه لم يفهم جملته الأخيرة وأراد أن يزيد في ارتباك فاستطرد قائلاً :

— لو لم تكن مهتماً بمراقبة خطواتك فقط وأنت تمر على القنطرة

لتنبهت إلى ما في هذه البقعة من جمال طبيعي رائع !!

وتعافل الربان عن هذه الملاحظة التهمكية وقال بصوت خافت :

— صدقت فأنت تسكن كوخاً جميلاً .

أجاب نلسن منفعلًا :

— لم يكن هذا البيت موجوداً حينما هبطت إلى الجزيرة في المرة

الأولى . . بل كان في مكانه كوخ صغير جميل تعيش فوقه الطيور
وتغطي جدرانه شجيرات لها أزهار قرمزية . . أما أشجار جوز الهند
فتتعالى إلى الجو في غرور المرأة الجميلة . . وفروعها تتدلى نحو صفحة المياه
كأنها لا تحتمل مفارقة ظلها في تلك المرأة الصافية . . وكنت إذ ذاك
في ريعان الشباب أنعم بريعي الخامس والعشرين . . ولكنني كنت
رجلاً مسؤولاً مقضياً عليه بالموت ، وقرر أطباء السويد أنني لن أعيش
أكثر من عام واحد . . فسافرت إلى الشرق لأتمتع بأ أكبر قسط من
السعادة خلال العام الذي بقي لي . . وجبت المحيط الهادئ وتنقلت بين
جزيرة وأخرى إلى أن أتيت إلى هنا . . كنت حزينا لمرضى أصارع
الموت وأحاربه ، وما كاد بصرى يقع على هذا الجمال الطبيعي الرائع حتى
أخذت به وفاضت دموعي رهبة وخشوعاً . . بل كففت عن الصراع
وارتضيت الموت فرحاً في مثل هذه الجنة . . ونسيت حياتي في السويد
ولأيام السعيدة التي قضيتها في جامعة استكهولم . . واقتطعت الماضي من
حياتي وأغفلت المستقبل وعشت سعيداً بحاضري فقط .

وسكت نلسن قليلاً واختطف كأسه وأفرغها في فمه ثم استطرد قائلاً:
— وما كدت أقضى هنا وقتاً قصيراً حتى اكتشفت سر جمال
هذا المكان وسر سحره وجاذبيته . . فهنا رفر ف الحب بجناحيه كما
يرفر الطائر السائح المتعب فوق سفينة يلقاها في عرض المحيط . .
ولم يكن العبير المنتشر في الجو هو عبير الأزهار اليانعة بل أريج العاطفة

المتأججة التي اشتعلت على مذبح الحب . . ولم يكن الخلود هنا هو خلود الطبيعة ، بل خلود الحب الذي نما وترعرع بين أشجار تلك الغابة .
وسكت نلسن قليلاً ثم قال :

— هنا عاش فتى وفتاة أحب كل منهما الآخر بقوة وشغف وإخلاص . .

ثم هز كتفيه ضاحكاً . . وكانت ضحكة أقرب إلى البكاء . . ولم تلبث هذه الضحكة أن تلاشت سريعاً فعاد يقطب جبينه وقد احمر وجهه كمن غلبته العاطفة . . ونظر إلى الربان وقال له فجأة :

— يتملكني شعور قوى بأننى رأيتك قبل الآن .

— لست أعتقد ذلك .

— ولكنى أشعر أن وجهك ليس غريباً عني . . ومنذ رأيتك تمر على القنطرة وأنا أكّد ذاكرتى عن المكان الذى قابلتك فيه . .
فهز الربان كتفيه دون اكتراث وقال :

— ليس بغريب أن تعجز الذاكرة عن ذكر وجه من المئات التى يقابلها الإنسان فى حياته .

فازدادت حيرة نلسن وقال ساهما :

— فى بعض الأوقات حينما ينزل الواحد منا مكاناً للمرة الأولى يتملكه شعور بأن هذا المكان ليس غريباً عنه . . بل يعيش فى الخيلة كشيء يعرفه جيداً . . وهذا هو بالضبط ما أشعر به نحوك . . .

وهز نلسن رأسه يائساً ثم بسم في سخرية وقال :

- ربما تقابلنا في حياة أخرى غير حياتنا هذه ... من يدري ؟ ..
ربما كنتَ إذ ذاك سيداً من أسياد روما وأنا عبد في حاشيتك
أقود جيادك ...

وسكت طويلاً ثم بدا عليه تردد قليل لم يلبث أن زال بسرعة وسأل :

- هل قضيت حقاً ثلاثين عاماً في جزائر الهند الشرقية ؟ ؟

- نعم قضيت ثلاثين عاماً كاملة لا تنقص يوماً واحداً ..

وقال نلسن فجأة :

- هل تعرف الأحمر ؟ ؟

فشهق الربان متعجباً وردد :

- الأحمر ؟ ؟ !!

- نعم .. فهذا هو الاسم الوحيد الذي عرف به هذا الرجل بين

الناس .. لم أره قط .. ولكنني أشعر أنه يعيش في مخيلتي طوال

السنوات التي قضيتها في الشرق ... يعيش كما يعيش روميو في خيلة

الملايين الذين قرأوا تاريخه !! ... هل قرأت شعر دانتي أو شكسبير ؟ ؟

فأجاب الربان في وجوم :

- كلا . لا أظن أني قرأت شيئاً من هذا ...

- طبعاً فمن الصعب عليك أن تفهم فلسفتهم .

وغض الربان الطرف عن هذه الملاحظة القاسية وسكت أيضاً ..

فاتكأ نلسن على مقعده وهو يدخن ويرقب ضيفه بعيونه الحزينة . . .
ولاحت ابتسامة ساخرة على شفتيه . . فما أبعد الفرق بين هذا المخلوق
القبيح الذى يجلس تجاهه وبين الصورة الخيالية الجميلة التى ترسم الآن
فى مخيلته للأحمر ؟ ؟ !

واستطرد فى ذكر قصته قائلاً :

— كان الأحمر أجمل من خلق الله من الرجال . . وقد حدثنى
بذلك جميع الأوربيين الذين عرفوه وأطلقوا عليه هذا الاسم نسبة إلى
شعره الأحمر المجعد — فخصلاته الذهبية تزينها تموجات طبيعية تزيد
روعة وسحرًا . . ولاعتزازه بشعره أطلقه طويلاً إلى كتفيه . . وهو
مديد القامة عريض المنكبين كآلهة الإغريق . . ولكنه لم يكن مغروراً
بجماله ، بل تقبله فرحاً كمنحة طيبة من الله . . أما وجهه فجميل كجسده . .
وعيناه واسعتان فى زرقة السماء الصافية . . وأهدابه تهتز لطولها إذا ما
داعبها نسيم الصباح . . وأنفه رومانى حاد . . وفمه تزينه شفاه قرمزية ،
وجلده الأبيض فى مثل نعومة الحرير . . .
فقاطعه الربان قائلاً :

— كنت أغفر فى شبابى بجلد مثل هذا !!! . .

فلم يجبه نلسن بل نظر إليه فى حقد واستنكار ، لأنه أفسد صورة
الأحمر بموازتها بنفسه . . فاختطف كأسه وأفرغ ما تبقى فى فمه ليهدىء
من نأثرته وقال :

— كان الأحمر فريداً في جماله لم يخلق الله من قبل له مثيلاً . . .
كالزهرة البرية التي تنمو وتترعرع وحيدة فوق السهول . . . وبالاختصار
كان عملاً فنياً في الخلق البشرى . . . يقولون إن الأحمر بحار أمريكي
هرب من الجندية والتجأ إلى الجزيرة ليختفي عن العيون . . . ولم أعرف
سبباً لهربه . . . وربما كانت قيود الجندية لا توافقه . . . وربما كانت
طبيعته الرقيقة ، وقد ازدادت زقة بتشبعها بجمال الشرق وخياله ، لم تعد
تقوى على حياة القتال والكفاح . . . فوقف عند الشاطئ ، متردداً لا يعرف
أى اتجاه يسير فيه . . . إلى أن دعتة إليها فتاة سيامية صغيرة . . . ولم تكن
الفتاة تعرف الانجليزية ولم يكن هو يتكلم لغة السياميين . . . ولكنه ، على
كل حال ، فهم معنى ابتسامتها المغرية وسحر وجهها الجميل فتبع قلبه في
الحال . . . ودخل معها الكوخ وأكل الطعام الذي قدمته له .

رأيت الفتاة بعد ذلك بسنوات ثلاث ولم تكن بعد قد بلغت الثامنة
عشرة من عمرها . . . وكان لها جمال أفروديت ورشاقة الطفل الغرير
وعبير الأزهار . . . وهي طويلة القامة نحيفة الجسم . . . وتقاطيعها منسقة
وعيونها سوداء صافية كماء غدير في ليلة مقمرة . . . وشعرها الأسود
المجعد ينسدل فوق ظهرها وكتفها . . . ويدها صغيرتان وثغرها ضاحك
وابتسامتها تبعث في الجسد نشوة فاتنة .

أحب كل واحد من هذين الخلقين الآخر من النظرة الأولى . .
هذا هو الحب الحقيقي الخالد وليس الحب الذي يتولد تدريجياً نتيجة

الشفقة أو المنفعة المتبادلة .. بل هو الحب البريء الساذج الذى طغى
نجاة على قلب آدم يوم استيقظ فرأى للمرة الأولى حواء وهى تقف على
باب الغار تحلق فيه بعيونها العسجدية .. وهو الحب الذى يجذب
الحيوانات بعضها إلى بعض دون فكر أو روية .. بل هو السر الذى
يجعل من هذه الحياة نغزاً معقداً غير قابل لحل أو تفسير ..

هل سمعت بحكمة الدوق الفرنسى الذى قال يوماً : إن كل حبيين
أحدهما يحب والآخر يسمح لنفسه بأن يحب ؟؟ . هى حقيقة قاسية تحدث
لنا جميعاً فى الحياة .. ولكن الأحمر وحبيبته كلاهما كان يحب وكلاهما
كان يسمح لنفسه بأن يحب !! ..

وحتى الآن وبعد مرور كل هذه الأعوام يدمى قلبى كلما فكرت فى
هذين الخلقين الجميلين اللذين ألهمتهما العاطفة وغمرهما الحب وهما ما زالا
طفلين .. مثلاً يدمى قلبى حينما أرقب القمر فى ليلة صافية الأديم ..
لا تدهش هكذا !! فتأمل الجمال يسبب للانسان ألماً لذيذاً ..

كانت الفتاة رقيقة وديعة . أما هو فلست أعرف إلا القليل عنه ،
ولكنى أميل إلى الاعتقاد بأن نفسه كانت جميلة كوجهه .. ولكنها
نفس حائرة تشبه الطائر الضال المتقلب الذى لا تحلو له الحياة إلا إذا
انتقل من دوحة إلى دوحة ومن وطن إلى وطن .. ففقد بحيرته وتقلبه
جنة النعيم ، لأن اليسر وعدم التعمق فى تهذيب الروح الفطرية معناه
الحرمان من لذة الحياة ..

حينما نزل الأحمر بالجزيرة كانت البلاد قد قاست وباء خطيراً من
تلك الأمراض التي ينقلها الإنسان الأبيض إلى مجاهل الشرق النقية . .
ومات ثلث السكان على الأقل . . ومن بين من مات أهل الفتاة
وأقاربها جميعاً ، ولذا كانت تعيش مع صديقة عجوز . . وعاش الأحمر
في ضيافتها ولم تمض أيام معدودات حتى رغب في الانتقال . . ربما لأن
الكوخ قريب من الشاطئ وهو يخشى أن يعثر الأوربيون عليه . .
أو لأنه كان يحب الانفراد بحبيبته ولا يطيق أن تأخذ العجوز بعضاً من
وقتهما السعيد معاً . .

وفي صبيحة أحد الأيام شد الرفيقان رحلها وحملتا القليل الذي
يملكانه من المتاع ، وسارا جنباً إلى جنب فوق الأعشاب الخضراء
وفي ظل الأشجار المتعانقة حتى وصلا إلى القنطرة التي مررت فوقها
اليوم . . ووقف الأحمر متردداً لا يجرؤ على المرور خشية السقوط في
الماء . . فضحكت منه الفتاة وأمسكت بيده وساعدته على السير حتى
المنتصف . . فعاوده تردده وخائنه شجاعته وعاد مسرعاً من حيث
أتى . . نخلع ملابسه خشية الابتلال فحملتها حبيبته وسبقته إلى الضفة
الأخرى . . وسار هو متردداً خائفاً حتى وصل بسلام بفضل تشجيعها
وإغراء ابتسامتها . .

ووجدا كوخاً مهجوراً غطا الرجال فيه . . لست أعرف بالضبط
أكان الكوخ ملكاً للفتاة أم ملكاً لأسرة أبادها المرض . .

وكل ما أعرفه أنهما عاشا فيه ولم يعترض أحد على ذلك ..
أما الأثاث فبساط من الأعشاب ومراة محطمة وإناء واحد للطعام ..
وفي هذا الجو الفطري الساحر بدأ حياتهما معاً — يقولون إن السعادة
لا تاربخ لها .. وهكذا الحب السعيد .. كانا يقضيان الوقت دون
عمل ما ومع ذلك بدت الأيام قصيرة مسرعة .. وأطلق الأحمر اسم
« سالى » على فتاته فعرفت به بين الناس .. وتعلم لغتها الوطنية في
وقت قصير .. فكان يرقد بجوارها على بساط العشب ساعات طوالا
يستمتع إلى حديثها الساذج راضياً مسروراً .. ويدخن اللغائف التى
تصنعها له بيديها من تبغ خاص ينمو هنا .. وفى بعض الأوقات يأتى
أهل الجزيرة لزيارتهم ويتحدثون إليهما عن الأيام الغابرة حين وضعت
الحرب أوزارها بعد أن أهلكت الحرث والنسل .. أو يذهب الأحمر
إلى الشاطئ لصيد الأسماك ويعود بالكثير منها .. أو يخرج فى المساء
وهو يحمل قنديلا ينير له الطريق ليلتقط من الرمال القواقع البحرية التى
تخرج من المياه عند الظلام .. وحينما يزحف الليل بجيوشه وتلمع النجوم
فى السماء كقطع براقه من الماس ينأمان جنباً إلى جنب حتى يأتى الفجر
وتدخل أشعته من خلال ألواح السكوخ فتكشف عن سالى وهى تضع
رأسها على ذراع حبيبها كطفل صغير يختبئ فى صدر أمه ... وحين
ترسل الشمس أشعتها الساخنة يستيقظ الحبيبان ضاحكين مستبشرين
باستقبال يوم جديد ..

ومرت الأسابيع واكتملت الشهور عاما وكلاهما يحب الآخر بالقوة
نفسها وبالعاطفة نفسها . . العاطفة الجامحة التي اجتاحت قلوبهما يوم
رأى كل منهما صاحبه للمرة الأولى . . وأصبح حبهما حديث القوم
ولم يعتقد أحد من الأصدقاء أن هذا الحب سيموت يوما أو تضعف
حدثه على الأقل . . أليس الإيمان بخلود الحب هو أساس بقاءه
وازدهاره ؟؟؟ ! كانت سالى تؤمن بهذا الخلود ولكن فى قلب الأحمر
بذرت حبة السأم . . ولم تشعر بها الفتاة ولم يشعر بها الفتى نفسه حتى
نمت وترعرعت . .

فى أحد الأيام حمل اليهما صديق خبر وصول باخرة أوربية إلى
الخليج . . فهتف الأحمر فرحاً وقال :

— مرحبا بقدمها . . سأبيعهها بعض الثمار وأشتري جزءا من التبغ
الأمريكى الذى أتوق إليه . .

فالسجائر الوطنية التى تشغل سالى بصنعها طيلة يومها دون كلل أو
ملل لم تنسه تبغ بلاده بعد . . وتذكر غليونه الملقى على أرض
الكوخ منذ قدومه فتحسّر . . بل وسال لعابه شوقاً إلى استعماله . .
وحزنت سالى لحنينه إلى الماضى ولكنها لم تعاتبه أو تمنعه لأنها كانت
تؤمن بحبه ، وبأنه ليس هناك قوة فى الوجود تقوى على انتزاعه منها ولو
كانت تلك القوة هى ذكرى الوطن والحنين إليه . . وخرجت معه إلى
الغابة وجمعت ثمار البرتقال والمانجو ووضعتها فى سلة كبيرة حملتها بيدها

إلى القارب الذى ما لبث أن ابتعد يحمل الفاكهة والأحمر وخادماً
سيامياً صغيراً . . وكانت هى المرة الأخيرة التى رأت فيها حبيبها . .
فى اليوم التالى عاد الخادم الصغير وحيداً باكياً يروى لسالى ما
حدث . . فحينما وصلا إلى الباخرة رأيا البحارة فرحبوا بالأحمر ودعوه إلى
الصعود إلى ظهرها . . وأخذوا الثمار التى يحملها إليهم وقدموا إليه التبغ
الذى يريده . . وأخذ الأحمر منه قليلاً وأشعل غليونه فى الحال وجعل
يدخن فى نهم وهو يرقب بلذة الدخان المتصاعد من فمه . . ودخل
الأحمر إلى حجرة الربان ليتناول كأساً من الشراب ووقف الخادم
يرقبهم من الخارج . . رأى الصبي الربان وهو يسر شيئاً إلى الأحمر
وضحك هذا وهز رأسه رافضاً . . وجعلوا يشربون الكأس تلوا الكأس
حتى تعب الخادم من مراقبتهم فافترش سطح السفينة وأخذ النعاس . .
وعند منتصف الليل استيقظ الصبي فجأة بضربة قاسية كالها له أحد
البحارة فقفز واقفلاً . . نظر إلى الحجرة فرأى الأحمر على مقعده ساجداً
فى نوم عميق لكثرة ما تناول من الخمر . . ونادى سيده فانهال عليه
البحارة ركلاً وضرباً وحملوه إلى الماء وقذفوا به فيه . . وسبح إلى
القارب ثم عاد إلى الشاطئ باكياً . . وما حدث كان منظوراً فالربان
فى حاجة إلى أيد عاملة فعرض على الأحمر أن يعمل معه فلما رفض
سقاها الخمر واختطفه بعد طرد الخادم . . .

حزنت سالى حزناً شديداً . . وقضت الأيام الأولى وهى تبكى وتصرخ

كمن فقد الوعي .. واجتمع أهل الجزيرة حولها يخففون وقع المصاب ..
ولم تقبل منهم عزاء .. بل كانت تخرج كل صباح إلى الخليج تقضى
يومها جالسة لعل الأحمر يتمكن من الهرب والعودة إليها .. وتبكي
الساعات الطويلة بدموع سخينة حتى إذا ما أقبل الليل عادت منهوكة
القوى إلى الكوخ الذي تذوقت فيه طعم السعادة .. ودعتها المرأة العجوز
إلى معاودة العيش معها كما كانت تفعل سابقاً فأبت أملاً في أن يعود
الأحمر فيجدها حيث تركها .. ومرت الشهور ولم يعد الحبيب المنتظر
فزالت ثورة سالى وحل في قلبها حزن صامت مخيف .. كان من العجب
حقاً أن فتاة فطرية مثلها تحتفظ بحرارة قلبها طيلة هذه المدة .. وثابرت
سالى على النظر من النافذة كلما سمعت وقع أقدام على القنطرة لعله
يكون الأحمر ..

وسكت نلسن ثم تهذب بحزن .. وإذ ذاك تكلم الربان للمرة الأولى وسأله:

— وماذا حدث لها بعد ذلك ؟؟

ابتسم نلسن ابتسامة صفراء وقال :

— بعد سنوات ثلاث من ذهاب الأحمر عاشت سالى مع رجل

أوربي آخر ..

فقهقه الربان ضاحكاً حتى اهتز جسده الثقيل المترهل وقال :

— هذا ما يحدث لمن عادة !!

نظر إليه نلسن نظرة تجلى الحقد فيها وامتلات بالكراهية .. وتساءل

في نفسه عن الدافع إلى هذه الكراهية . . ولكن الذكرى طغبت عليه مرة
أخرى وسبحت نظراته بعيداً . . ونسى الربان الضخم الجالس أمامه . .
ونسى ما يشعر به من حقد نحوه وعاد إلى الماضي بحلوه ومره . .
كان نلسن هو ذلك الرجل الذي عاشت معه سالى بعد اختطاف
الأحمر . . وقد أتى إلى الجزيرة مللاً من حياة المدن وخمرها ونساءها
فالتجأ إلى هذا المكان ليقضى الشهور القليلة التي تبقت له من الحياة . .
وعاش في ضيافة تاجر عند الطرف الآخر من الجزيرة فخرج صباح يوم
يجول طلباً للرياضة وسار على الحشائش الخضراء مستظلاً بالأشجار
الباسقة حتى وصل إلى كوخ سالى . . وكان الكوخ وما يحيط به من
مناظر جميلة يستوقف النظر ويأخذ بالألباب فوقف ساهماً مأخوذاً . .
وإذ ذاك رأى سالى للمرة الأولى تخرج من الباب فكانت أجمل من رأى
من النساء . . وزاد في جاذبيتها ما بدا في عينيها من حزن عميق . .
حزن يطفو من القلب ويطن على الجمال فيكسبه غموضاً وسحراً . .
فأخذ بجملها وصار كوخها قبلة يحج إليها كل صباح . . وتعلم لغة البلاد
من أجل أن يحادثها . . وانتشر خبر حبه لها فدعته المرأة العجوز إلى
زيارتها . . وهناك كان يقابل حبيبته ولكنها ما كانت تكلمه أو تهتم به .
وبمرور الأيام تغلب على صمتها فبادلته الحديث وكان أول ما قالته
أن سألته عن الأحمر . . ونما الحب في قلب نلسن وازداد حتى لم يعد
في استطاعته أن يكبح جماح رغبته الدائمة في رؤيتها . . فحينما يعود إلى

منزله يبقى إلى اليوم التالى يفكر فيها . . ولكنه كان رجلاً مريضاً بالسل مقضياً عليه بالموت فما فائدة حبه إذا ؟ . . رضى بالقليل منها وانحصرت سعادته فى النظر إليها والتحدث معها . . وبقي حبه نقياً طاهراً ولم يعد يطلب منها أكثر من أن تسمح له بأن يبسط حولها سياجاً من عطفه وحمايته . .

حدثت المعجزة أخيراً . . وأكسبه الجوانقى وحرارة الشمس والراحة والجمال الذى يحيط به قوة فلم تعاوده حمى المساء . . وقل سعاله وازداد وزنه ومرت الشهور دون أن يموت فبعث الأمل فى قلبه من جديد . . وبدأ المستقبل يزهر أمامه فاعتزم أن يعيش فى الجزيرة ما تبقى له من عمر وأن يزرع النخيل ويتجر بثمار جوز الهند . . فأنشأ منزلاً صغيراً وأرسل إلى السويد يطلب كتبه الكثيرة التى تركها وراءه هناك . . لم يعد الآن ، وقد كتب له الشفاء يقنع من سالى بالقليل السابق . . رغبها لنفسه ولكنها رفضته . . فلم يحزن ولم ييأس لأنه كان يؤمن بأن حبه الجارف سيتغلب على تعنتها قريباً . . وازداد شوقه إليها ولم يعد يطيق الحياة دونها ، ففتح المرأة العجوز بذلك فرجبت به وألحت على فتاتها أن تقبله . . واشترك أهل الجزيرة جميعاً فى الإلحاح لأنهم كانوا يحبون نلسن ويرغبون له السعادة . . وأصرت سالى على رفضها لأنها ما تزال تحب الأحمر وتنتظره . . فألهب إصرارها شوق نلسن وانتوى ألا يقف شىء فى طريقه . . .

وقبلت الزواج منه باكية منتحبة تحت إلحاح الجميع .. ولما أتى اليوم
السعيد المنشود ذهب نلسن إليها فرأى النيران تشتعل في كوخها ..
فلقد أحرقت وكر السعادة يديها حتى لا تدنسه بحب غير الأحمر .. فلم
يغضب بل أخذها إلى بيته ..

أصبحت سالى الآن زوجه ولكن لم تمض أيام معدودات على
الزواج حتى تبخر حلم السعادة التي كان يمني النفس به .. وخضعت
له بجسدها فقط أما قلبها فظل مغلقاً دونه .. ولم تبادله الحب أو تهتم
به وظلت في صمت تنتظر الأحمر .. ولو حضر إليها إذ ذاك لتبعته في
هدوء دون أن تأبه لنلسن أو تلقى عليه تحية وداع .. ورأى كل ذلك
في عينها فتملكه حزن شديد .. فحاول أن يجتذبها إليه بعطفه وحبه تارة
وتارة أخرى بكرمه وحسن معاملته ففشل .. فأهمل شأنها لعلها ترتدع
فلم تنتبه لإهماله .. فيثور غضبه في بعض الأوقات وينهال عليها ضرباً
وشتماً فتبكي في هدوء ولا تكلف نفسها مشقة عتابه فيما بعد .. وثار
ثورته وتحطمت كبرياؤه وانكسر قلبه وأقسم أن ينساها فلم يستطع ..
ومنذ هذه اللحظة أصبح حبه سجناً له يبغي التخلص منه ، ولكن
قيود ذلك السجن كانت قوية شديدة فلم تدعه يفلت .. وانقلب حبه
لها حقداً عليها ولم تلبث نيران قلبه أن خبا لهيبها وعاش دون أمل ..
ولم يعد يهمه أو يغضبه أن يراها كل صباح بجوار النافذة ترسل النظر
إلى القنطرة باحثة عن تحب .. وعاشا معاً كما يعيش الأغراب يجمع

بينهما سقف واحد وتفصل بين قلوبهما ذكري رجل بعيد . . .

وتنهّد نلسن لذكري ما لاقاه من ألم على يدي سالي وظفرت من
عينيه دمة حائرة وقال مخاطباً الربان :

— كلما تذكرت الحب الخالد الذي جمع بين قلبي سالي والأحمر
أحسدهما على الفراق الذي واثما في ذروة العاطفة فأبقى على لهيب حبهما ..
لقد تعذبا حقاً ولكنه عذاب الهوى .. وما أحلاه !!

وبدت الحيرة على وجه الربان فقال بصوته الغليظ :

— لست أفهم ما ترمي إليه ! ..

وأجاب نلسن باسمًا :

— إن مأساة الحب يا صديقي ليست في الفراق وإنما في موت العاطفة
وخمود لهيبها .. فما أجل أن يترك الحبيب حبيبته وهما ما زالا هائمين ..
إذ ذاك تبقى ذكرى الحب خالدة في قلوبهما .

وسكت نلسن قليلاً ثم سبّح في بحر عميق من التفكير .. والتفت
فجأة إلى الربان سائلاً :

— هل تظن أن الأحمر يعود يوماً ما ؟ ؟

فهز الربان رأسه الكبير وقال بصوته الأجش :

— لا تخش شيئاً .. سيعود لا محالة ولكنه يكون إذ ذاك قد نسي
حبه القديم لسالي .. لا بد أنه تعذب كثيراً حين استيقظ فجأة واكتشف
اختطاف البحارة له .. ولا شك أنه قاسى في بادئ الأمر عذاب

الجحيم . . ولكن لم تمض شهور قلائل حتى حمد الله على الخلاص
منها . . ولم يمض عام حتى نسيها تماما . . فخب الأوربي للشرقية
حب يأس لا أمل فيه ، ولا شك أنه عرف هذه الحقيقة فتدارك الأمر
قبل فوات الفرصة . .

وكان في حديثه ظل من الحقيقة فالتفت إليه نلسن مستغرباً وحلق
فيه بعيونه الواسعة الحزينة فلم يعد يرى أمامه الربان الثقيل المترهل . .
بل رأى شبحاً قديماً يعرفه بقلبه وإن لم يره بعينه . . وأحس أنه ينظر
إلى مرآة مشوهة تقلب الرأى مخلوقاً بشعاً مخيفاً . . وتسرب الشك إلى
نفسه . . فلماذا أتى هذا الربان إلى الجزيرة وأى عمل له في تلك البقعة
المنعزلة عن العمران ؟ ؟

فسأله في خشونة :

— من أنت ؟ ؟

وأجاب الربان وهو يخفى بسمة ساخرة قائلاً :

— لقد مضى وقت طويل منذ أن سمعت اسمي للمرة الأخيرة . .

ولكن منذ ثلاثين عاماً كانوا يسمونني الأحمر . .

واهتز جسمه حين أطلق ضحكة خشنة تجلى معها ما فيه من دمامة

وقبح . . وجعل يضحك ويضحك حتى سالت الدموع من عينيه . .

وانتفض نلسن واقشعر بدنه ، وفي اللحظة عينها دخلت امرأة عجوز

مترهلة هي سالى وقد أثقلتها السنون وذهبت بنضارتها وجهاها . .

واحتمسبت الكلمات في حلق نلسن . . . فيها قد أتت الدقيقة الفاصلة . .
فهل ستعرف في هذا الخلق حبيبها الأحمر ؟؟ وهل سيعرف هو في هذه
العجوز الشمطاء حبيبته الصغيرة سالى ؟؟ . . وجاءت الدقيقة ومرت
دون أن يعرف أحدهما الآخر . . وانحنى سالى على نلسن تسأله عن
ميعاد الغداء . .

فالتفت إلى الربان قائلاً :

— أكون سعيداً لو أنك تناولت الغداء معي . .

فأجاب الآخر :

— لا أستطيع قبول دعوتك لأنني مضطر إلى العودة سريعاً .

ثم قام متثاقلاً يطلب الانصراف . . ووقف نلسن يرقبه وهو يسير
مبتعداً وقد ناءت قدماه بحمل جسمه الثقيل . . وحين وصل إلى
القنطرة ووقف متردداً هتف نلسن :

— حذار من السقوط ؟؟

فأجاب الآخر هازئاً :

— لا تخف علي !!

وحينما اختفى الضيف بين النخيل سقط نلسن في مقعده ساهماً . .
فهل هذا هو الرجل الذي أحبته سالى ووقفت قلبها عليه وما زالت تنتظره
إلى الآن ؟؟ هل هذا هو الرجل الذي كان في شبابه كالزهرة اليانعة
والذي تحدث الشرق بجماله الأخاذ ؟؟ هل هذا هو الرجل الذي حرمه

السعادة خمساً وعشرين سنة طوالاً؟؟ . ألا قبحاً للشيخوخة القاسية
التي تجعل من الجمال الخالد صورة مثل هذه!! .

واجتاحت نفسه نوبة الاشمئزاز وتملكه غضب شديد فجأى حتى قد
أحس رغبة ملحّة في أن يحطم كل ما حوله . . ثم ما لبث أن ضحك .
واشتد ضحكه حتى غدا كالنحيب . .

وعلى مائدة الغداء جلس نلسن يتناول طعامه في صمت وقد جلست
سالى تجاهه وهى تأكل . . والتفتت إليه وسألته بصوتها الهادئ الرزين :
— من هذا الرجل الذى أتاك اليوم؟؟ .

وشهق نلسن واحتبست الكلمات فى حلقه . . فماذا تقول لو أخبرها
أن هذا الرجل الذى لم تعرفه هو حبيبها الأحمر؟؟ الرجل الذى أحبته
إلى درجة الجنون وأدمت عينها بكاء لفراقه؟؟

هل يخبرها فيحطم قلبها ويدميه كما حطمت قلبه وأدمته؟؟ هل
يخبرها فينتقم منها من أجل ما قاساه على يديها من تعس وشقاء؟؟
ولكن ماذا يهمه الآن؟؟ لو حدث هذا منذ عشر سنوات لأخبرها
وانتقم منها . . أما الآن فقد أصبحت عجوزاً شمطاء لا يحمل لها فى قلبه
حباً ولا ضغناً . . . فلن يخبرها إذاً بل سيتركها تمنع فى انتظار حبيبها
وتعيش بأملها وهى لا تدري أنها قابلته يوماً ولم تعرفه ويكفيه
هذا انتقاماً لنفسه . . . ولقد تحرر الأحمر من حبه فلم لا يتحرر هو أيضاً
ويتدارك الفرصة قبل فوات الأوان؟؟

وسمعتها تردد سؤالها :

— من هذا الرجل الذى أتاك اليوم ؟

فأجاب فى هدوء :

— صديق يحمل أخباراً من السويد . . . وبهذه المناسبة سأعود

إلى وطنى قريباً . . .

سألته دون اهتمام قائلة :

— وهل تغيب هناك ؟

فهرز كتفيه ولم يجب . . .



زهور البرتقال

للكاتب الانجليزى الكبير فرانسيس برت يونج

فى قصر مانور وهو من أجمل قصور الريف .. وفى حجرة المكتبة
التي أعد معظم جدرانها لتعليق أدوات الصيد والقنص .. سار مورتون
ستون جيئة وذهابا كصقر حبيس فى قفص .. وارتسم القلق واضحا على
محياء وهو ينتظر قرار الطبيبين اللذين اجتمعا فى حجرة زوجه ..

كان مورتون ستون رجلاً قوى الجسم مهيب الطلعة .. شعره ينحدر إلى
ما وراء جبهته ... حليق الذقن وعيناه رماديتان ألقت عليهما حياة الريف ظلا
أزرق .. أما فكاهة فريض .. ينم على شخصيته القوية .. وشكله على العموم
ينطق بحقيقته وهى أنه شريف انجليزى يمثل الحياة الراقية لأهل طبقته ..
سار فى الحجرة جيئة وذهاباً وهو يصغى بين آن وآخر فى قلق
واضح .. ولكن غنما سمع وقع أقدام الطبيبين وهمساتهما وهما فى
طريقهما إليه تمالك فى الحال روعه وعاد لوجهه وقاره وورزانتة .. ودخل
طبيب العائلة ومن خلفه زميله الإخصائى وتقدما منه وهما باسيمان ..
فأحس مورتون أن هذه البسمات قد رسمت من أجل تهدئته وإدخال
الطمأنينة على نفسه .. فسأل فى خشونة :

— حسناً أيها السادة أسمعوني الآن حكماً !!

وتعجب الإخصائي من هذا التعبير فالأمر لا يستدعي حكماً ولم يصل
بعد إلى هذه الدرجة من الخطورة . . فالحالة يسيرة واضحة وقد جاء هو
اليوم ليؤكد الرأي الذي أبداه زميله من قبل . . ثم قال :

— الحالة مطمئنة . . والمتاعب التي تعانيتها زوجك ترجع إلى عهد
طويل مضى . . وقد أخبرني الدكتور هاريس أنها فقدت ابنها الأول
منذ بضع سنوات . .

أجاب طبيب العائلة مستدركا :

— منذ سبع سنوات . .

فاستطرد الإخصائي :

— نعم منذ سبع سنوات . . ومنذ ذلك العهد ظهرت عليها أعراض
المرض الذي ما زالت تعانيه . . وزوجك ، إن كان لي أن أتكلم في
صراحة ، ليست بالمریضة الطيبة . . فهي ، ككل من ولد في جنوب
أفريقيا ، لا تميل إلى النظام ولا تتبعه في حياتها . . فشغفها الشديد
بالصيد ، وقد سمعت أنك من أكبر هواة ، أصاب صدرها ببرد أهملت
علاجه فأزمن والآن تدفع ثمن إهمالها . . وعلى كل فلنحمد الله على أن
موسم الصيد قد قارب النهاية . . وسيتحسن حالها بفضل العناية والعلاج
الذين اتفقنا عليهما .

وهكذا تدفقت عبارات الطمأنينة من فم الإخصائي فقد أراد هذا

الرجل العظيم أن يحلل أجره على أكمل وجه .. وختم حديثه وهو يضع
نقود مورتون في حافظته قائلاً :

— نصيحتنا الأولى أن تسافر معها في بدء الشتاء القادم إلى
بلد جاف .. وإلى أن يحين ميعاد السفر يراقبها الدكتور هاريس
بعين رعايته ..

وجعل مورتون ستون يراقب زوجه في عناية وفي شفقة وقلق ..
فالمرض مهما كان يسيراً قد أودى بحيال كثيرين .. واسترق من خديها
تورد الشباب ورسم حول عينيها خطوطاً داكنة فأصبحت عصبية المزاج
تعاف واجباتها المنزلية بعد أن كانت تقبل عليها في شغف .. ولكنها لم
تحس بتغير طباعها ولم يحاول زوجها أن يشعرها به .. قال لنفسه يوماً :
— حسناً .. حسناً .. على المرء أن يتقبل الحياة كما قدرت له ..
فشرية الزواج تقضى بأن نسير في الشباب جنباً إلى جنب وأن نشيخ
معاً .. ولكن المصيبة أن صدرى ما زال يمتلىء بالشباب !! ..

وهكذا كان يعزى نفسه بروح تقية راضية .. ودخل على علاقتهما
عنصر جديد هو التضحية الشريفة .. وعلى الرغم من أن حبهما قد
خمدت جذوته الأولى فليس من حقه أن ينسى إخلاصها الدائم له .. وما
دام المرض قد بدل حالها فمن واجبه الآن أن يرد لها الجليل بما يماثله ..
وقد فعل ذلك بصدق وإخلاص .. ولكن الصيف مضى ثقيلاً مملاً
فثارت أعصابه وضاق صدره لمحول حياته الجديدة التي تعارض رغباته

وميوله .. كما أقلقه فوق ذلك فكرة السفر معها في الشتاء .. فسيضطر
إلى أن يقضى شهوره الطويلة في بلد جنوبي للاستشفاء .. بعيداً عن
متعة الصيد وبعيداً عن كلابه المحبوبة ..

وحين آذن الصيف بالانتهاء أصبحت الحاجة ماسة ملحة .. ولم يعد
الطبيب يشير بالسفر بل يلح ويأمر به .. فكاشف مورتون زوجه برغبة
الطبيب في السفر فتضايقت وحزنت من أجله فقط .. واعترفت أن
حالتها الصحية قد أزهدتها في الصيد والقنص .. ولكن ما ذنب
مورتون المسكين أن يحرم منه !! . وتساءلت : أهنالك غابات للصيد حول
بياريتز ؟ أو بحيرة لصيد الأسماك بالقرب من جبال الپرينيز ؟ .. فربما
لو استفسر عن هذه النقاط لما ضايقته فكرة السفر .. وعلى كل فهي على
أتم الاستعداد للسفر وحدها إذا اقتضى الأمر ذلك .

لم يكن مورتون بالرجل الذي يقبل مثل هذه التضحية بسفرها
وحدها .. ومهما تضايق فمن واجبه أن يسافر معها .. وليس في نيته
أن يفارقها مهما يحدث .. وامتلات عينها كاثرين بالشكر لهذا الإخلاص
فامتلاً قلب زوجها بالفخر والرضا والسرور ..

كانا قد أقرا السفر إلى پياريتز عند ما وصل هانز مالان إلى انجلترا ..
وهانز من أبناء جنوبي أفريقيا كابنة عمه كاثرين .. وهو قوى البنية
ممتلئ الجسم .. مستقيم التفكير طيب القلب .. وقد وصل إلى الأربعين
من عمره بعد حياة حافلة بالنشاط والمخاطرات مثل حياة الجندي والقناص

والمزارع . . وجاء الآن إلى انجلترا من أجل كشف جديد توصل إليه
في بلاد الترنسفال . . .

سر مورتون لحضوره ورأى فيه أصدق مثل للرجولة الكاملة . . فهو
رجل خبر الحياة فاكسب قوة واستقامة . . فأخلاقه تشبه كثيراً أخلاق
مورتون . . وفوق ذلك فهو يمثل السيد الشريف المهدب الذى تختفى
أخلاقه الطيبة وراء ستر من الرزانة والهدوء . .

كان سرور مورتون بحضوره من أجل كاثرين . . فقد نضب أخيراً
معين الحديث بينها وبين زوجها . . وبدأت تبشير الملل تهدد سعادة
الأسرة . . وحمل هانز إليهما روح عالم أوسع من عالمهما . . فقد كان
نشطاً حليماً هادئاً مما بدد الكثير من سامة البيت . . وطابت نفسه
حينما رأى زوجه تقضى الساعات الطوال فى صحبة ابن عمها لتستعيد معه
ذكرى وطنها العزيز وحياتهما السابقة . . وأكسبت الذكرى وجه
كاثرين نضارة فدبت دماء الحياة فى وجنتيها الباهتتين . .
قال هانز لابنة عمه باسمًا :

— ها أنت ترين أننى ما زلت باقياً على عهدي ولم أتزوج بعد . .
ولقد قضيت طيلة هذه السنوات فى انتظار امرأة تشبهك رقة
وعذوبة . . بل على أمل واحد وهو أن أقابل الرجل الذى حرمنى
منك واختطفك بعيداً . .
فأجابته ضاحكة :

— والآن وقد رأيته فما رأيك فيه ؟؟ ..

قال مازحاً وهو ينظر إلى مورتون من رأسه إلى إخص قدميه :

— مناسب على قدر الامكان ! ..

وجلس الزوج يصغى إليهما راضياً مسروراً .. وعند ما رأى وجه
كاثرين يشرق بالسعادة تذكر الماضي الجميل .. وتذكر يوم التقيا للمرة
الأولى فتحابا وتزوجا دون تردد أو إحجام .. ولكن المرض قد أطفأ
جذوة هذا الحب وأفقده حرارته القوية .

لم تمض أيام ثلاثة على وصول هانز مالان حتى تغير حال كاثرين
وأصبحت امرأة أخرى غير التي عرفها مورتون أخيراً .. فهي دائماً
المرح والابتسام .. وهي تضحك لأتفه الأسباب وتقهمه لأيسر الملح ..
وعاودتها الرغبة في الحياة والشوق إلى التمسك بأهدابها .. فلم يجد
مورتون بداً من الاستنارة برأى ابن عمها فيما يختص بمسألة السفر ..
قال هانز :

— لستما في حاجة إلى الذهاب إلى الپرينيز أو سويسرا .. فجنوبي
أفريقيا هو أصلح مكان لها .. ألا ترى أنها في أشد الحاجة إلى زيارة
وطنها واستنشاق نسيمه ؟؟ .. ثم انظر كيف يشرق وجهها كلما تحدثنا
عن أيام الطفولة والصبا .. أما أنت فلن يضيرك السفر معها، فمن العار
ألا تزور هذا الإقليم الجميل ...
فتنهدت كاثرين وقاطعته قائلة :

— ثم الشمس الجميلة الساطعة التي لانحلم بمثلها في انجلترا .. والحقول
الشاسعة والجو النقي الدافئ .. ثم زهر البرتقال الذي ما زال عبيره
ينعشني إلى اليوم ..
فاستطرد هانز قائلاً :

— ولدينا الكثير من الخيل .. والصيد مهياً في كل مكان ..
و باستطاعتك هناك أن تعوض ما ستفقده هنا من رياضتك المحبوبة ..
ولقد اشتريت ضيعة صغيرة يتوسطها كوخ جميل يقوم على قمة التل ..
وتحيط به أشجار البرتقال بزهرها الأبيض الناصع .. ويقود إليها طريق
طويل صفت على جانبيه أشجار الكافور العالية .. إن ضيعتى قطعة من
الجنة والحياة فيها سعادة لا تضارعها سعادة القصور .. فتعاليا معي ولن
تندما يوماً على السفر .. وستقوم بخدمتكما دافنى الصغيرة التي غدت
ربة بيت قديرة ..

وصرخت كاثرين دهشة :

— دافنى ؟! دافنى الصغيرة ؟؟! لقد عرفتها طفلة غريرة تلعب في
الحديقة وتلهو بالدمى والعرائس ، فهل كبرت وترعرعت سريعاً وغدت
ربة بيت ؟؟

ثم التفتت إلى زوجها وقالت مفسرة :

— دافنى هي أخت هانز من أم ثانية ..

قال هانز مشجعاً :

- سأعود إلى الوطن في الأسبوع القادم فسافرا معي إلى ضيعتي
وابتعدا عن متاعب الحياة ودواعيها الكثيرة . .

فسألت كاترين زوجها :

- أنذهب معه ؟ ؟

وكان في صوتها ضراعة ورغبة ملحة ، فلم يقو مورتون على
الرفض على الرغم من أن جنوبي أفريقيا هو آخر بلد كان يفكر في
الذهاب إليه .

٢

كان اسم ضيعة هانز مالان « بهجة البحار » . . وهي تقع عند
منحدر جبال الهوتنتوس الهولندية . . ويتوسطها كوخ صغير جميل
تعشش عليه الطيور وتحيط به أشجار البرتقال ذات الزهر الأبيض
الناصع . . ويقود إلى الكوخ طريق منحدر طويل صفت على جانبيه
أشجار الكافور التي ترتفع عالية كأنها جنود تحرس المكان وتبعد عنه
العيون المتطفلة . .

وعاش مورتون ستون وزوجه في هذا الكوخ الجميل راضيين . .
يستيقظان في الصباح عند ما تحمل لهما النافذة شذى الكافور . . أما
حجرة الطعام فقد كانت في الناحية الأخرى من المنزل ، ولذلك طغى عليها
عبير زهر البرتقال فبعث بين جدرانها سحراً هادئاً يسكر القلوب ويخدر

العقول . . فيالاسم « بهجة البحار » من تعبير صادق تنطق به كل
زهرة وكل حقل وكل نسيم يداعب الأشجار . . !

كانت دافنى ربة بيت قديرة . . فهى تدير شؤون الدار على
أكمل وجه . . فلا يكاد الإنسان يفكر فى شىء إلا ويجده بين يديه . .
ولكن مورتون لم يشعر بوجودها طيلة الأسابيع الأولى ، وذلك لأنه كان
يلزم زوجه دائماً ويعنى بحياتها ومرضها ، وقد كانت دافنى خجولا إلى
أبعد حدود الخجل . . وهى تميل إلى الوحدة والصمت فلا تظهر بين
الجماعة إلا ساعة الطعام . . ولم تبد أبداً رغبة فى الاندماج فيهم أو فى
الاشتراك فى رياضتهم ومسراتهم ، على الرغم من أنها كانت عماد البيت
والعامل الأول فى انتظامه وجماله . . وحتى على مائدة الطعام كانت تعتمد
إلى الصمت فلا تتكلم إلا قليلا . . وتأكل فى هدوء وهى تراقب
مورتون ستون بعينها الواسعتين الخضراوين . . وأعجب مورتون بجمال
عينها وراح ، فى نفسه ، يوازن بينها وبين عيني زوجه الزرقاوين ...
ظلت الفتاة ، فى اعتقاد كاترين وابن عمها هانز ، دافنى الصغيرة
ليس إلا . . فعاملها معاملة الأطفال وجعلها يغيظانها دائماً بالتحدث
عن الشاب بايت سترايدم الذى أولع بها وهام أخيراً بحبها . . ثم
يضحكان من إصرار الفتى على زيارة الحديقة كل يوم ليتطلع إلى وجه
حبيبته فى صمت وسكون . . وتقبلت دافنى دعايتهما فى هدوءها
المعهود . .

وكانت دافنى فى الثامنة عشرة من عمرها . . وشعرها أشقر وجسمها
دقيق ووجهها باهت تزينه عينان خضراوان غامضتان . . أما شفتاها
فدقيقتان قرمزيتان . . وهى على العموم طفلة هادئة لا تشبه كثرين
ذات الشخصية القوية والروح المرحمة المداعبة . . وإذا اجتمع الغموض
والطفولة أسبغا على صاحبهما نوعاً من السحر والروعة . . ولكن
مورتون بستون لم يحس بوجودها ولم يفكر فى أن يضع وقته بالتحدث
إليها . .

ومضت الأسابيع الأولى ومورتون غارق فيما يشبه الحلم الطويل . .
فنسيم الشرق والكوخ الباعث للخيال والحياة الفطرية الخلابة التى
يتمتع بها فى ضيعة « بهجة البحار » ، بعثت فيه روحاً من الدهشة
والعجب . . ولكن كثرين لم تشارك زوجها فى عجبهِ ودهشته لأنها
عرفت المكان من قبل . . فالأزهار تحدثها عن أيام الطفولة . . والطيور
تشدو بأغنية الوطن . . والنسيم يحرك ما فى قلبها من حنين ورضا . .
وأحس مورتون بذلك فحزن لأن تلك الذكريات التى لا يستطيع أن
يشاركها فيها قد أبعدت بينه وبينها . . كما شغلت فكرها عن زوجها
وواجباتها حياله . .

وانهكت الذكريات قوة كثرين فلم تتقدم صحتها على الرغم من جمال
الجو والمكان . . وهزل بدنُها لأنها كانت تستعيد الماضى فى ثورة وشغف
كأنها ستحرم مما حولها عن قريب . . ولم تعد صحبة مورتون تعجبها

ما دام لا يستطيع أن يشاركها في شعورها . . وتحطمت كاثرين شيئاً
فشيئاً فازداد قلق زوجها خاصة وهما على بعد آلاف الأميال من إنجلترا
وطنه المحبوب . . فلو أنه كان هناك لارتاح قلبه كثيراً أما الآن فالأمر
جد مختلف في هذه الواحة الخيالية التي يعيشان فيها . .

وعلى مرور الوقت ضاق صدر كاثرين فكانت تتور لأتفه الأسباب
وتغضب لأيسر الكلمات . . وتملكها العناد فكانت ترفض تناول
الدواء أو اتباع نصيحة الأطباء . . ونفدت حيلة مورتون فلم يعد يقوى على
كبح جماحها . . ولكن شكراً لها نزل مالان فقد كانت كلماته تعيد كاثرين
إلى رشدها . . ونظرة من عينيه العميقتين تبعث في نفسها الهدوء ،
فتتناول الدواء راضية وترقد في فراشها كما أمر الطبيب . . وأصبح
وجود هانز مع الزوجين ضرورة لا مفر منها . . كل هذا ودافنى تراقبهم
بنظراتها الغامضة . . !

قال مورتون يوماً لها نزل :

— إن ما يؤلمنى هو الحالة التى وصلت إليها كاثرين . . فأعصابها
متوترة مما يدفعها إلى إهمال أوامر الطبيب . . إننى أشك

— فيم تشك يا صديقى ؟ ؟ .

— أشك فى صواب فكرة الحضور إلى هنا . . فقد فقدت كاثرين
الكثير من قوتها ، لأن ذكريات الطفولة التى تستعيدوها قد أنهكت
جسدها الضعيف . . .

— أنت مخطيء فيما تعتقد يا مورتون . . . فكأثرين سعيدة جداً
والطبيب راض عن حالتها . . . ولو جد في أمرها شيء لأخبرنا في الحال . .
— ولكن هل في مقدوره أن يخبرنا ؟ ؟
— آه . . . إنك ككل الانجليز لا تثق إلا في بني جنسك . .
— كلا لا أقصد ذلك ، ولكني أرى حالتها تنحط يوماً بعد يوم . .
ولو كنت تعرفها مثلي . .

فقاطعه هانز :

— بل أعرفها أكثر منك يا صديقي . .
— أعلم ذلك فأنت ابن عمها . . وقد تربيتا معاً وترعرعتا جنباً
إلى جنب . . وقد كان من دواعي السعادة أن أتيت إلينا ونحن في
أشد الحاجة إلى صديق وفي . . . ولكن ألم تسمع الطبيب يأمرها
بعدم الخروج على صهوة جواد ؟ ؟ هذا ولا شك دليل على تأخر
حالتها الصحية . .

— لا تخش شيئاً . . فما أمر الطبيب بذلك إلا على سبيل الحيلة ،
وقد رأى أنها تبالغ في رياضة الركوب فوضع حداً لمبالغتها . . وخير
نصيحة أقدمها لك ألا تقصر اهتمامك على دأثرين وإلا انحطمت أعصابك
وسقطت مريضاً إلى جانبها . . فأنت رجل قد اعتدت حياة النشاط ،
ومع ذلك أراك تهجر امتطاء الجياد لأن الطبيب حرّمه على زوجك . .
ثم تقضى الساعات الطويلة جائلاً في الحديقة كأسد حبيس . . .

لم لا تخرج إلى سفوح الجبال للصيد والقنص ؟ ؟ لم لا تستمتع بوقتك
كما يجب وتترك كاثرين لعنايتي ؟ ؟ . . وفي مقدورى أن أفيدها
أكثر منك لأنها تطيعنى وتخضع لأوامرى . .

وسكت مورتون قليلاً ثم أجاب :

— ولكن ليس من الشهامة أن أتمتع بمختلف أنواع الرياضة
وزوجى طريحة الفراش تعانى آلام المرض . .

— بل يجب أن تفعل ذلك، فوجودك الدائم إلى جوارها .. ورغبتك
الملحة فى تنفيذ أوامر الطبيب تثير أعصابها وتزيد حالتها سوءاً . . ولا
خوف عليها ما دمت أعنى بها . . لا تكن صلب الرأى يا مورتون،
فاترك زوجك لرعايتي، وسأكون مسئولاً عن راحتها وسعادتها . .
أما أنت فعليك بالرياضة والخيال فى صحبة دافنى الصغيرة . .

وارتسمت على شفتى مورتون بسمه حزينة وقال :

— إننى أرثى لدافنى المسكينة . . فلو قدر عايتها أن تصحبنى فى
رياضتى لضايقتها برودى وكآبى . . وقد تظن كاثرين بى الظنون
فتتناهبها الغيرة . .

— لا تخش شيئاً أيها الزوج الأمين !! . . فمن دواعى سرور
زوجك أن تراك سعيداً فى صحبة ابنة عمها . . والشخص الوحيد الذى
قد تعذبه الغيرة هو بايت سترايدم لأنه يحب دافنى ويغار من النسيم إذا
داعب خصلات شعرها الأشقر . .

وعندما سمعت كاثرين باقتراح هانز سرت به كل السرور . .
وجعلت تشجع زوجها على الرياضة في صحبة دافنى . . فأى فائدة من
وجوده دائماً إلى جوارها ؟؟ إنها سعيدة بالعودة إلى الوطن ، وما دام
مورتون لا يستطيع أن يشاركها هناك الذكريات فليعالج سأمه بشيء من
الرياضة والمتعة . . فضلاً عن أن وجود هانز إلى جانبها سيعوض عليها
غياب زوجها . ولم تنس أن تختم حديثها بضحكة ساخرة وهى تقول :
— ولكن أرجو منك ألا تعبث بقلب دافنى !! . .

ودهش مورتون ثم سألها :

— ماذا تقصدين بذلك ؟ ؟

فتداركت قولها وربت على كتفه وأجابت :

— لا تغضب هكذا سريعاً فأنا أمزح معك . . .

وهكذا بدأت رياضة مورتون في صحبة دافنى الصغيرة . . والعجب
أن الفتاة لم تدهش لاقتراح هانز وكاثرين ولم ترفضه . . بل تقبلت الأمر
في صمت كأنه واجب عليها أن تؤديه طائعة . . وعند ما رآها مورتون
وهى على متن الجواد للمرة الأولى جعل يوازن بينها وبين كاثرين . .
وألحظ عليه تلك الموازنة كلما وقعت عيناه على جسدها الرقيق ووجهها
الغامض . . فكاثرين حين ترتدى ثوب الركوب تشبه صبيلاً جميلاً . .
صبيلاً مرحاً باسمماً ولكنه صبي على كل حال . . أما دافنى فهى امرأة
كاملة الأنوثة تنبعث منها دماء الشباب حارة متفجرة . .

وكما تغلغلا معاً بين الأشجار العالية ازداد إعجابه بها . . فهي دائماً جميلة هادئة . . بل تختلف كل الاختلاف عن الفتاة الغامضة التي تنتقل بين حجرات الكوخ كروح هائم لا يعرف له مصيراً . . إنها الشباب الحار الذي زایل كثرين والذي بدأ يزايله هو أيضاً منذ وخط المشيب فوديه . . فما أعذب هذا الشباب وما أقساه . . ! ! !

كانت ذكرى الشباب تبعث في نفس مورتون ظلاً من الحسرة والألم العذب الجميل . . وحينما خرجا من الغابة إلى السفح المنبسط لم يعد في مقدوره أبداً أن يكبح جماح رغبته في النظر إليها . . وهب النسيم فداعب خصلاتها الشقراء وانفرجت شفتاها عن بسملة رائعة . . واهتز جسمها الرقيق فوق متن الجواد في نشاط وقوة . . إنه الشباب أيضاً فخير لمن تخطاه مثل مورتون ألا يفكر فيه . ! !

وقفوا عند السفح يستريحان قليلاً ثم جلسا جنباً إلى جنب في صمت . . ولم يتكلم مورتون ، لا لأن الخجل منعه عن الحديث ، وإنما لأن الجمال والشباب والخيال قد سرت دواعيها في بدنه ورأسه كما تسرى الخمر . . قالت له دافنى يوماً :

— أتعرف أنني لا أفكر فيك أبداً كرجل متقدم في السن ؟ ! !
فأجاب في حماسة قائلاً :

— لو كنت تعرفين يا دافنى ما أشعر به عند ما أرى الشباب الغض يتمثل فيك وفي بايث سترايدم ؟ !

فاحمر وجهها غضباً وقالت :

— إنك تفسد جمال الرياضة بالتحدث عنه . . ولقد تعاوتتم جميعاً
على مضايقتي وإغصابي . .

— ولكنه يحبك ويتمنى الزواج منك .

— ولكني لا أبادله ذلك الحب، ولن أقبله زوجاً ولو خلت الدنيا
من الرجال . . فضلاً عن أنني سعيدة بحياتي ولست في حاجة
إلى الزواج . .

واستطاع مورتون بعينه الثاقبة أن يصل إلى قرارة نفسها الغامضة
وأن يقرأ في عينيها أنها لم تكن سعيدة كما تقول . . وبقيت بعد ذلك
صامتة غاضبة فندم على حديثه وتمنى لو أنه لم يذكر بايت سترايديم . .
وعادا إلى الضيعة دون أن يتبادلا الحديث . .

وتلقته كاثرين بيسمتها الساخرة المعهودة وقالت :

— كيف كانت رياضتك مع دافني ؟؟

— لم نتقدم كثيراً في صداقتنا بعد . .

فضحكت بمرح وقالت :

— عليك بالشجاعة يا مورتون . . عليك بالشجاعة والمثابرة وإن

لم تفلح بادی الأمر

طيلة هذا المساء وظيلة اليوم التالي ظل مورتون هائماً في حقول الضيعة
ليتغلب على ما عصف بقلبه من عواطف . . فشبح دافني ما زال ماثلاً

أمام عينيه . . وشبابها المتفجر يبعث دماء الحياة في عروقه . . ولكن
دافنى عادت إلى غموضها العجيب الذى يلازمها بين جدران الكوخ . .
وظل هو صامتاً لا يقوى على دعوتها للرياضة معه فى اليوم التالى خشية
أن تنفذ نظرات دافنى إلى قلبه فتقرأ مابه .

ولاحظت زوجه تردده فاقترحت على دافنى أن تخرج معه . .
فخرجاً مرة أخرى يسيران جنباً إلى جنب بين الأشجار العالية .
وعاودت مورتون هواجس الأمس . . ولكنه تعلم درساً نافعاً ولذلك لن
ينطق بكلمة عن بايت سترايدم . . فما الذى يعود عليه من غضبها ؟ ؟
إنه يريد صداقتها ولا يرضيه أن يغضبها مرة أخرى .

ورحبت دافنى بهذه الصداقة رغم الأعوام الكثيرة التى تفصل بينهما
وشعرت أنها استطاعت أن تتغلغل فى نفس مورتون وأن تعرف خلقه
جيداً . . وهى فى الواقع لم تفهم هذا الخلق ولكنه تركها تسترسل فى
أوهامها !! وجلسا جنباً إلى جنب فوق الحشائش الخضراء يتأملان
أمواج البحر المتلاطمة . . فقالت له :

— إننى أعرف ما تفكر فيه . . فأنت تحلم بانجلترا !!

ولم يكن فى الواقع يفكر فى بلاده وإنما كان يتذوق السعادة
التي ستنقضى عاجلاً . . فلم يعارضها وتركها كعادته تسترسل فى
اعتقاداتها وقال :

— لا بد أنك تدهشين لتلك الأحلام يا دافنى ؟ ؟ .

كان يحب اسمها ولذا ينطق به في كل فرصة تواتيه فأجابت :
— ولم أدهش وأنا إنجليزية مثلك ؟؟ . لقد ولدت في إنجلترا
وترعرعت فيها وأتيت هنا منذ سنوات قليلة فقط .

— ولكنك تتقنين لغة البلاد ؟! .

— لأن والدتي من جنوبي أفريقيا وقد علمتني لغة وطنها منذ
الطفولة . . ولكل هذه الأسباب أستطيع أن أقدر حينئذ إلى الوطن . .
ونحن في هذه النقطة نختلف عن كاثرين وهانز ، فكلاهما من أبناء هذه
البلاد وكلاهما لا يحمل حباً أو ذكريات طيبة لإنجلترا . .

ولقد نطقت دافني بالحقيقة الواقعة ، فكاثرين وهانز يمتان بروابط
وثيقة إلى هذه البلاد . . وهو ودافني يرتبطان ببلد آخر بعيد . . وهذا
هو السر في تلك القوة الخفية التي تجذب أحدهما إلى الآخر . . وهذا
هو السبب الأول الذي أوهن الرابطة بينه وبين زوجته وحفر فجوة
عميقة بين عاطفتيهما . . فجوة لم يقو الحب على سترها بغطاء رقيق . .

ولقد أثبتت الأيام التالية صدق دافني ، « فبهجة البحار » تربط
هانز وكاثرين برباط قوى متين . . وهورباط يفصل بينهما وبين مورتون
ودافني . . وخشى مورتون أن تزيد هذه الأفكار الهوة اتساعاً بينه
وبين زوجته فقرّر أن يضع حداً لها . . ولكن أتقوى الإرادة على انتزاع
الحقيقة من القلوب ؟؟ . إذاً فليفكر كما يشاء ما دامت أفكاره حبيسة
في قلبه لا يعلم بها سواه . . ومرت الأيام وهو يلعب دور الزوج الأمين في

حرص وإخلاص .. وكان ملكا لكثيرين ما عدا أحلامه المكبوتة ..
ملكاً لها وحدها دون الجميع حتى دافنى الصغيرة ..

ولكن الأقدار شاءت أن تقطع القيود التي تربط مورتون بزوجه
وتدفعه نحو دافنى مرة أخرى .. فقد حل الربيع بنسيمه العليل وأزهاره
اليانعة فبسمت الحقول وأورقت الأشجار وتغطت الأرض ببساط جميل
من العشب .. ثم ذهب الربيع وأقبل الصيف بشمسه المشرقة التي
تنعكس على صخور الشاطئ بشعاع كاللهيب .. وخرج مورتون في
صحبة دافنى كالعادة .. وأعيتهما حرارة الجو فجلسا فوق الأعشاب
يستريحان .. وافترشت دافنى الأرض واستسلمت للنوم وبقي مورتون
يراقبها بقلب مفعم بالإعجاب .. فشعرها الجميل يتهدل على عنقها ..
وعيناها مطبقتان في تراخ وسحر .. ورأى مورتون ظلاً أسود يمر فوق
جسد الفتاة النائمة .. وعند ما أمعن النظر جحظت عيناه رعباً وهلعاً ..
فما رآه لم يكن ظلاً وإنما هو ثعبان كبير من نوع الكوبرا وهو أخطر
أنواع الثعابين .. وأخذ الثعبان طريقه إلى الفتاة النائمة وتلوى جسده
الطويل في حلقات فوق ساقها .. فما العمل؟؟ . لو أن الفتاة أحست به
وتحركات للدغها في الحال .. ولكنها لم تشعر به بعد وما زال صدرها
يتنفس بانتظام .. وقدح مورتون زناد فكره في طريقة حاسمة سريعة
ينقذها بها .. وأخيراً جمع قوته وجذب دافنى فجأة من تحت الثعبان ثم
دفعها إلى منحدر التل .. وأخذ الثعبان بالمفاجأة فاختنفى سريعاً وتدحرجت

الفتاة بشدة حتى وصلت إلى السفح . . وهكذا مرت بسلام أخطر
دقيقة قابلها في حياته المليئة بالمخاطر والمغامرات . .

واستيقظت دافنى عند ما جذبها مورتون ودفعها إلى المنحدر فلم تقو
على منع جسدها من التدحرج . . وتبعها هو وأخذها بين ذراعيه . .
وتدفقت الكلمات من فمه سريعة متقطعة . . وحدثها بالخطر الذى هدد
حياتها وهى نائمة . . فأخفت وجهها فى صدره وجعلت تبكى فى هلع
ورعب . . فأخذها بين ذراعيه فاستسلمت إليه راضية . . وأحس فجأة
بما حاول أن ينكره من قبل . . وعرف أنه يحب الفتاة إلى درجة الجنون . .
وعرف أيضاً أنها تبادله ذلك الحب وإلا ما استسلمت لذراعيه راضية . .
ولكنه عاد فتذكر زوجه المريضة طريحة الفراش . . كلاً . . كلاً . . عليه
أن ينفذ عن كتفيه غبار هذا الحب . . فأى أمل له فى دافنى وهو
الرجل المتزوج الذى لا يفكر أبداً فى الانفصال عن زوجته ؟ ؟

استجمع شجاعته وبقوة كادت تمزق قلبه دفع الفتاة بعيداً عن صدره
ليطفىء اللهب الذى بعثته فى نفسه . . وحمد الله أن استطاع أن يكبح
جراح عاطفته . . وأحست دافنى بما يعصف به فابتعدت فى سكون . .
وعادا إلى الضيعة ومورتون يحاول أن يخفى ما به تحت ستار من الحديث
الساخر المتهمك . . وظلت دافنى تصغى إليه ولا تجيبه بكلمة واحدة . .
فلقد فهمت أن حديثه الساخر يعنى أن لا أمل فى حبهما على الإطلاق . .
وعلى الرغم من ذلك ارتسمت الحقيقة أمام مورتون . . فهو يحب

دافنى ولا سبيل إلى خلاصه من ذلك الحب . . ولكنه لن يرضى به
لأنه رجل متزوج وزوجه مريضة لا تسمح رجولته بهجرها أو طلاقها . .
فلقد تزوجها أمام الله وأقسم على مذبح الكنيسة ألا تفرق الدنيا بينهما
حتى يفرق الله . . فكيف يتركها الآن وقد حطمها المرض وأضناها ؟ ؟
حقيقة أنه لم يعد يجب كاثرين . . ولكن ليس من حقه أن يجب
دافنى . . وراح يخادع نفسه قائلاً إنه لا يجب دافنى . . وارتاح لهذا
النكران بادىء الأمر . . ولكن لماذا إذاً تنهمر الدموع من عينيه وهو
يردد ذلك القول ؟ ؟ . ولماذا يخفق قلبه ويخونه النطق ؟ ؟ كلا إنه يحبها
ولا سبيل إلى النكران . . وتبعته هذه الحقيقة أينما ذهب . . تبعته إلى
الحديقة وإلى السكوخ وإلى الحقول وإلى كل مكان يذهب إليه . .
فلو أنه استطاع فقط أن يبعد شبحها الجميل عن عينيه لهدأت نفسه
وطاب قلبه . . !!

واعترزم مورتون أن يتجنب لقاء دافنى ، فقطع على نفسه عهداً بألا
يخرج معها بعد اليوم . . وفطنت كاثرين إلى انقطاعه فقالت له
مازحة متهمكة :

— لماذا انقطعت عن الخروج مع دافنى ؟ .

فأجاب :

— لأن حرارة الصيف تلفح وجوهنا وتضر الجياد . .

— مسكينة دافنى فقد كانت عواطفها قد بدأت تتيقظ ! ! . .

وسمعت دافنى حديث الزوجين فنظرت إليهما نظرة طويلة حاملة ولم
تتكلم أو تدهش . . . ولماذا تدهش وهى تفهم معنى هذا القول كما تعرف
الجواب عليه . . فمورتون يحبها غير أنه فريسة التردد ووخزات ضميره،
ولذا فهى تنتظر فى صبر وتؤدة . .

ولكن أكان مورتون ينتظر مثلها ؟؟ وهل أحست أن قصة
حبهما لم تنته بعد ؟؟ . وعلى كل فهو لا يملك دليلاً على حبها له إلا أنها
استسلمت لذراعيه راضية . . وهو لم يحدثها بعاطفته ولم يقبلها . .
وشكراً لله الذى منعه أن يقبل فيها الجميل . . فلو أنه فعل لما استطاع أن
يكبح جماح عاطفته وينكر حبه كما يفعل الآن . .

واستقر رأيه أخيراً على الخلاص مما هو فيه فانتوى العودة إلى وطنه
إذ لا شك أن البعد يشفى جراح القلوب . . . وواتته الفرصة عندما
اشتدت حرارة الصيف فأنحطت صحة كاثرين وذبل وجهها . . وشجعه
الطبيب على السفر ، ولكنها أصرت على البقاء فى عناد قائلة :

— إننى سعيدة هنا فاتركنى وشأنى ولا تحرمنى الهناء الذى
يغمر قلبى . . .

— ولكن واجبى يقضى على أن أبعدك عن كل ما يأخذ من
صحتك وقوتك ويضر بك ضرراً بليغاً . .
فابتسمت فى دهاء وقالت :

— أهو الواجب الذى يدعوك ؟؟ صدقت فأنت أكثر

الأزواج قياماً بواجبك نحو زوجك ! ! .

وكانت لهجتها ساخرة تهكمية . ولكنه مع ذلك صمم على السفر . .
فلم يكن الواجب وحده هو الذى يدعو بل أيضاً الرغبة فى الابتعاد عن
موطن الغواية والإغراء . .

وأعد العدة للرحيل واشترى تذكرة السفر . . وعندما انتهى من
إعداد كل شيء عاودته الراحة والهدوء . . وأحس أن فى استطاعته
الآن أن ينظر إلى دافنى دون خوف أو وجل . . وشعر بالبطولة تملأ
جنبه فلقد أتى عملاً جليلاً وضحى بقلبه وبقلب دافنى فى سبيل زوجه .
وفى ليلة الرحيل ازداد شعوره بالبطولة وخاصة وقت جلوس الجميع
حول المائدة التى صفت فوقها الأطعمة والخمور احتفالاً بالراحلين . .
وشرب مورتون كفايته فعاوده المرح واستطاع أن يشترك مع هانز مالان
فى رسم خطط العام القادم . .
قالت كاثرين لابن عمها :

— نريد منك وعداً صادقاً بالحضور إلينا فى العام القادم على أن
تصحبك دافنى الصغيرة فى رحلتك . .

وشعر الزوج بالرعب يتملكه ، فلقد رحل على أمل ألا يرى الفتاة مرة
أخرى . . فهل قدر عليه أن يقع تحت سحر عينيها الخضراوين ثانية ؟ . .
لو حدث هذا لكانت الطامة الكبرى فعودة الحب أخطر من دوامه . .
فقام واستأذن فى الذهاب إلى حجرتة . .

كان المساء هادئاً والقمر يرسل أشعته الفضية على أشجار الكافور
فيزيدها جمالا وسحراً . . وأرسل زهر البرتقال عبيره إلى الجو فبدت
ضيعة « بهجة البحار » في أوج روعتها وفتنتها . . ووقف مورتون على
باب حجراته يتأمل جمال الكون ثم تنهد وقال لنفسه :

— لن أرى هذا المكان بعد اليوم ولن أرى دافنى الصغيرة أيضاً ! . .
وأزاح عن قلبه بهذا الكلام عبثاً ثقيلاً فارتاحت نفسه ودخل إلى
حجراته ليعد الحقائب . . وانهمك مورتون فى عمله فلم يشعر بدافنى وهى
تسلل إلى الحجرة وتقف خلفه صامتة . . وعند ما أدار وجهه رآها
تحمق فيه بعينها الواسعتين الغامضتين وقد التهب خذاها بلهيب العاطفة . .
وقالت له :

— لقد أرسلتني كاثرين لأقول لك

ولم تكمل الحديث لأن الصوت خانها . . وحين رأت أمارات الألم
ترسم على جبينه المقطب ، وقرأت على وجهه قصة حبهما الحبيس طأطأت
رأسها خجلاً . . فقام مورتون وأخذها بين ذراعيه وجلس الحبيبان
يتناجيان ويفصحان عن عاطفتهم الجارفة .

إذ ذاك ردد الجو صوتاً عجيباً أشبه بحشرة حيوان يجود بنفسه
فرفع مورتون رأسه فرأى ظلاً عند الباب . . ووقفت كاثرين تتطلع
إليهما دهشة بعد أن أطلقت شهقة تشبه الحشرة . . وثبت مورتون
فى مكانه ولم يقو على الحركة . . وقبل أن يستفيق من دهشته انسحبت

زوجه واختفت وراء الباب وسمع الاثنان صوت جسم يسقط على الأرض .
راحت كاثرين فى غيبوبة طويلة منذ أن سقطت ، فأرقتها على
الفراش مغمضة العينين . . وجلس كل من فى البيت حولها فى انتظار
الطبيب . . وأتى الطبيب على عجل نخرج هانز لمقابلته . . وأقبل الاثنان
على فراش المريضة فوجدا مورتون فى أشد حالات الحزن والألم . .
وسار هانز إلى جوار الطبيب يترنح ذات اليمين وذات اليسار كشجرة
كبيرة توشك أن تسقط . . ولكن مورتون لم يره . . حتى الطبيب
الذى انحنى فوق المريضة فى اهتمام وقلق لم يره أيضاً . . وقال الطبيب أخيراً :
— إنه نزيل فى الناحية اليسرى من المخ . . ولقد كنت أخشاه
من زمن لأن مرضها يضعف أغشية العروق فتنفجر لأقل ثورة أو
صدمة مفاجئة . .

— صدمة مفاجئة ؟؟؟ !!

وكان فى صوت هانز مالان نوع من الإلحاح والتساؤل بعث الخوف
والرعدة فى قلب مورتون . . استطرد هانز قائلاً :
— أى نوع من الصدمات أيها الطبيب ؟ ؟
هز الطبيب رأسه وأجاب :
— قد لا تكون هناك صدمة على الإطلاق . . وكل ما فى الأمر
أن الاستعداد للسفر أثار أعصابها وجعلها فى حالة نفسانية سيئة . .
أكانت سعيدة برحيلها ؟ ؟

فأجاب هانز في غضب :

— بل كانت في أشد الحزن وقد عارضت فكرة الرحيل كثيراً
ولكن زوجها اضطرها إليه .

— هذا هو السبب إذاً . . وعلى كل فحالتها خطيرة جداً ، فقد
تستفيق من غيبوبتها وقد تموت وهي ما زالت فيها . وإن ماتت يكون
الله قد رحمها من آلام لا عدد لها .

وحدث أمر عجيب . . فعند ما سمع هانز مالان رأى الطبيب ترنح
جسده وسقط بجوار فراش كاثرين ثم جعل يبكي ويصرخ وهو يمسك
بيدها الباردة . . ورددت الجدران صدى نحيبه . . فجمع الطبيب
أوراقه استعداداً للرحيل . . أما مورتون فقد جلس يحملق في زوجه
تارة وتارة أخرى في هانز مالان . . وقال أخيراً :

— إذاً يجب أن نؤجل السفر فحالتها الحاضرة لا تسمح بنقلها
إلى إنجلترا . .

فقام هانز في وحشية واقترب منه وقال وهو يتميز غيظاً :

— نقلها !! لن تنقل كاثرين من « بهجة البحار » فهنا وطنها
المحبوب . . وكما ولدت فيه وترعرعت ستموت وتدفن في أرضه . .
وتدخل الطبيب بينهما قائلاً :

— ربما استطعنا أن ننقلها إلى هناك في فرصة أخرى . . أما الآن
فلا سبيل إلى ذلك .

فصرخ هانز قائلاً في حقد :

— لن تنقل كثرين من هنا أبداً . . فليسافر زوجها إن أراد أما

هي فباقية . .

فهز مورتون رأسه في ألم وقال :

— لن أسافر دونها وسأبقى دائماً إلى جوارها ...

٣

ومرت سنوات ثلاث ومورتون ما زال في ضيعة هانز مالان . .
وكان طيلة هذه السنوات مثلاً خالصاً للزوج الحب المتفاني . . وقد
صدق الطبيب حين قال إنها لو ماتت لكان الموت رحمة لها . . فبعد
بضعة أيام من سقوطها استعادت رشدها ولكن بعد أن أصيب جسدها
بالفالج وفقدت القدرة على الحركة والنطق . . فكانت ترقد على فراشها
نصف ميتة . . ولم تكن تتكلم بل ترى فقط . . وظلت عيناها طيلة
هذه السنوات ترقبان زوجها وهو يقضى أيامه ولياليه بجوارها . . ولكن
نظراتها لم تكن تحمل كراهية أو حقداً ، بل فيها قوة على التغلغل
واختراق الحجب إلى قلبه وقراءة ما يجول في نفسه من آلام وأفكار . .
وكان مورتون يحس أن عينيها تصلان مباشرة إلى قلبه وتكشفان عنه
الحجب والأستار . . .

كانت أعصاب مورتون تثور في بعض الأحيان لحياة الخمول التي
قدّرت عليه .. ولكن هذه الحياة المملة إلى جوار فراش كاثرين لأيسر
عليه من النظر إلى عيني دافني .. فكلاهما يحمل سراً واحداً يتوقان إلى
نسيانه .. وكأن دافني قد أحست بما يشعر به فابتعدت عنه وتحاشت
النظر إليه أو الجلوس معه دون ثالث يبعث بوجوده معهما الطمأنينة
والهدوء إلى قلوبهما .. واختفت بين جدران البيت وجعلت تنتقل من
حجرة إلى أخرى كشبح يتنازع غرف بيت مهجور .. وكان مورتون
سعيداً ببعدها .. سعيداً باختفائها بين الجدران .. سعيداً بكل ما يفرق
الواحد منهما عن صاحبه ..

وطوال السنوات الثلاث لم يكن مورتون يرى من الناس غير هانز
مالان والطبيب .. أما هانز فقد استعاد رباطة جأشه بعد نوبة الضعف
التي تملكته يوم سقطت كاثرين مريضة .. ولم يترك بعد ذلك العنان
لعواطفه .. ووقف أيامه على خدمتها والعناية بها دون كلمة أو إشارة لما
حدث .. وظن مورتون أن هانز قد سكت لأنه يعلم سره وسر دافني ..
ولكن الحقيقة أن الرجل استعاد هدوءه منذ أن عرف أن كاثرين
ستبقى في بيته إلى أن يقضى الله في أمرها .. وكان وجود هانز يبعث
الطمأنينة والهدوء إلى مورتون فهو صديق يوثق به

كان هانز مالان نشيطاً ومتمرنًا على خدمة ابنة عمه .. فحسده
الضخم وذراعه القويتان ووجهه العسكري الجهم يكون في خدمتها رقيقاً

إلى أبعد حد .. وكانت كاثرين تبادل ابن عمها عطفه ومودته .. فعند
ما تراه تنقلب نظراتها النارية إلى وداعة عذبة ..
وقال مورتون يوماً لها نر :

— لقد كانت فكرة طيبة أن قررنا البقاء هنا ، فلولاك لما استطعت
أن أقوم بخدمتها والعناية بها على أكمل وجه ..
فأجاب الآخر وعلى فمه بسمة مرحة :

— ألم أقل لك مراراً إن هنا وطنها المحبوب؟؟ إننى أعرف كاثرين
جيداً لأنها ابنة عمى التى تربت وترعرعت معى ..
قالا ذلك وكاثرين ترقد على الفراش أمامهما وتنقل عينيها من وجه
إلى آخر .. وكانت نظراتها هادئة عميقة ..

وأقبل الربيع فانضم إلى الجماعة التى تجلس حول الفراش شخص
ثالث هو بايت سترايدم محب دافنى القديم .. فكان يأتى كل يوم من
القرية المجاورة ويجلس بجوار المريضة ليقوم بنصيبه فى خدمتها ..
واعتادت الجماعة صحبته فكان يتناول معهم العشاء فى صمت كعادته ..
حينما ظهر بايت للمرة الأولى تألم مورتون ألماً شديداً ، فكان يجلس
الساعات وهو يرقب دافنى فى حديثها مع الفتى لعله يجد بين كلماتها
ما يدل على حبها له .. وبمرور الوقت جعل يبحث فى المنزل عن الأعين
الخضراء التى حرم النظر إليها طويلاً .. وأحس بالخجل من غيرته

فمعناها أنه ما زال يحب دافنى ويرغبها لنفسه . . ولكن أيجق له أن
يحبها بعد ما أنزل بزوجه هذه النكبات ؟ . وامتلات نفسه خزيا ولكن
عاطفته طغت على شعوره فلم يعد يقوى على إنكار حبه . . وأصبحت
صداقة دافنى لبايت هى عذابه الدائم . . فهل نسيت حبه وشغفت بالفتى
الصغير ؟ ؟ . وجعل يرقبها وهى تجلس على مائدة العشاء بجوار فتاها ثم
تتبعه بعد ذلك إلى الشرفة كفريسة تساق إلى مذبحها . . فيثور قلب
مورتون حتى يكاد يشتعل بين جنبيه .

لم تنطق دافنى بكلمة عن بايت سترايدم . . . ووصلت أخبارها إلى
مورتون عن طريق هانز مالان . . فعرف أن دافنى قد قبلت الزواج
من بايت على أن يتم العقد فى الخريف القادم . . وقال هانز يوماً :
— سيفقد البيت جماله بزواج دافنى ، فهى فتاة رقيقة مهذبة قديرة
على القيام بعملها .

وأقبل الخريف واقترب معه موعد الزواج . . وأتى اليوم الموعود فبقى
مورتون إلى جوار فراش زوجه وهو لا يقوى على الاشتراك فى
الحفلات . . ولم يودع الفتاة وهى ترحل إلى بيتها الجديد ، فذهب هانز
فى رفقتها وترك مورتون فى صحبة كاثرين . . وظل الزوج جالسا وقد
امتلاً قلبه بمختلف صنوف العذاب والألم . . فكيف تصبح هذه الزهرة
اليانعة طعاما لبايت الرينى الحشن ؟ ؟ وهل يقر الضمير جريمة
مثل هذه ؟ ؟

وفي هذه الليلة رقدت كاثرين كعادتها وهي تراقب زوجها بعيونها
الزرقاء العميقة كأنها ترغب في الوصول إلى قلبه ومعرفة ما به . . ولم
يعد مورتون يطبق نظراتها نفرج إلى الحديقة لعل هواء الليل وعبير زهر
البرتقال يبعث في نفسه الشجاعة من جديد . .

وفي الحديقة أحس مورتون بسعادة عظيمة . . فهو لم يودع دافنى
عند رحيلها ، ولو أنه فعل ذلك لثارت عاطفته وأفلت زمامها . . لقد
توج بطولته وتضحيته نحو زوجته بترك حبيبته تتزوج من غيره . .

وعلى مرور الأيام كان مورتون يعيش في ظلام ووحدة موحشة . .
فيسلى النفس بالإقبال على خدمة كاثرين . . ومرت الأيام واكتملت
في شهور وهو ما زال يقوم بواجبه نحوها . . ولم يعد يهمه الزمن أو يعمل
له حساباً . . وعند ما يعينه العمل يخرج إلى الحديقة ويترك واجب
الخدمة لها نر مالان . .

وفي مساء أحد الأيام عاد مورتون من رحلة له في الغابة فتبادر إلى
سمعه عويل ينبعث من الكوخ . . فجرى مسرعاً وقابلته الخادم وهي
تصرخ وتولول قائلة :

— لقد ذهبت زوجك . . لقد ماتت المسكينة . .

نزل الخبر على مورتون نزول الصاعقة فترنح في مكانه ثم أسرع إليها...
وزايلت قلبه ثورته السابقة على دافنى ، ولم يعد يشعر إلا بالحزن لوفاة
زوجه المحبة الوفية . . وتذكر شخصيتها المرححة الطروب التي تبعث

الحياة في كل مكان تنزل فيه . . ثم إخلاصها ومحبتها ورغبتها الملحة في
أن توفر له سبل السعادة والهناء .

ومن وراء الدموع التي ملأت عينيه رأى مورتون جسد زوجته يرقد
على الفراش . . وإلى جوارها يقف هانز مالان وهو يبكي وينشج كمن
فقد الوعي . . ولم يتنبه الباكي لدخول مورتون . . وأحس الزوج بالشفقة
على هذا الرجل فاقترب منه ليخفف عنه . . وناداه فلم يجب . . فربت
على كتفه فلم ينقطع عن البكاء والنشيج . . وقال له مورتون وهو
يأخذه بين ذراعيه :

— بحق السماء لا تستسلم هكذا للحزن .

فرفع هانز رأسه ونظر إلى مورتون . . فكان وجهه أصدق
مرآة لما يعتمل في قلبه من حزن وألم مما جعل الزوج يشهد بأن
حزنه هزيل إذا قورن بهذا الحزن . . وارتسمت الوحشية على وجه
هانز وقال :

— اذهب بعيداً وإياك أن تمسها بيدك . . فهي لي وحدي وقد
كانت دائماً لي . . آه أيتها الحبيبة الصغيرة . .

ثم عاد إلى بكائه مرة أخرى ودفن وجهه في صدر الميته . . وربت
مورتون على كتفه ثانية . . ولكن هانز لم يرحب بهذا العطف فأبعد
كتفه عن يد مورتون كأن تلك اليد شيء نجس يعاف أن يمسه . .
وقام واقفاً فترنح جسده الكبير . . ونظر إلى مورتون ملياً بحقد هائل

عجيب . . وفتح فيه فاندفع منه سيل من الضحكات العالية الرنانة . .
وقال وهو يغالب ضحكه الرهيب :

— أظن أن كاثرين كانت لك يوماً من الأيام ؟؟ . . ألا تفهم
ما أقول ؟؟ . لقد كانت لى وحدى منذ أن وطئت قدمها « بهجة
البحار » . . لقد تحابينا وكنا عشيقين . . فاذهب بعيداً . . اذهب
سريعاً أيها الغبي واتركنا وحدنا .

وجد مورتون فى مكانه تحت وطأة هذه الصدمة . وعادت به
الذاكرة إلى كل ما مضى . . . تذكر حبه لدافنى وتضحيته الجسيمة
فى سبيل زوجه . . . ثم الألم الذى عاناه وعانته معه الفتاة . . . فهل
حطم سعادته وسعادة دافنى فى سبيل زوج تخونه وتعشق غيره ؟؟
ثم خرج من الكوخ كشبح قد من صخر . . وأدار ظهره نحو جدران
« بهجة البحار » . . وسار يخبط فى ظلام الليل مبتعداً ولا أنيس له
إلا عبير زهر البرتقال . .



THE
LIBRARY
OF THE
MUSEUM
OF
COMPARATIVE ZOOLOGY
AND
ANATOMY
OF THE
MUSEUM OF
COMPARATIVE ZOOLOGY
AND
ANATOMY
OF THE
MUSEUM OF
COMPARATIVE ZOOLOGY
AND
ANATOMY

الحصان الخشبي الفائز

للكاتب الانجليزى الكبير د . ه . لورنس

كانت هناك امرأة جميلة حباها الله كل ما يسعد امرأة فى الحياة
إلا الحظ الحسن . . . تزوجت منذ سنوات مضت وكان الحب هو
أساس ذلك الزواج . . . ورزقت أطفالاً صغاراً فى جمال الأزهار
ونضرتها . . . ومع ذلك كانت تشعر دائماً أن هؤلاء الصغار عبء ثقيل
تنوء كتفها بحمله وينفر قلبها من محبتهم والعطف عليهم . . . كانت
عيونهم الساذجة تحدجها ببرود كل صباح وتحلق فى وجهها ناقدة مؤنبه
كما لو أنها أتت جرماً ما . . . وطالما قضت الساعات الطوال كثيبة حزينة
تبحث عن الجرم الذى أتته أو الخطأ الذى اقترفته فيجهدا البحث
ويعميها التفكير دون أن تصل إلى نتيجة مرضية . . . وهكذا خمدت
عاطفتها وشغل قلبها بأمور الحياة عن الاهتمام بأولادها ومحبة فلذات
كبدها . . . وأحست هى بما قد أصاب أمومتها من فتور وجحود فاشتد
بها القلق وسعت إلى إخفاء شعورها بسيل جارف من الرقة الزائفة
والعطف المصطنع تغدقهما على أولادها ، حتى لقد بدت كأنها تهيم بهم

حبا . . . وكانت هي فقط تحس في أعماق قلبها بنقطة صغيرة هامة
لا تحمل للأطفال حبا . . . كلاب ولا تحمل حبا لأى إنسان آخر .
هتف الكل قائلين :

— يا لها من أم طيبة تعبد أولادها وتقف شبابها على محبتهم !!! .
أما هي وأولادها فقد عرفوا خطأ هذا القول ، وقرأ بعضهم الحقيقة
القاسية في أعين بعض . .

وكان لهذه المرأة التعمسة ولد وبنتان يعيشون معها في منزل صغير جميل
تحيط به حديقة غناء ويتعهده خدم كثيرون . . . وعلى الرغم من
الإناقة الظاهرة كان القلق يسود المكان . . . فلم يكن للأسرة أبداً
من المال ما يكفى . . فللأم دخل صغير وللأب دخل صغير كذلك . .
وما كانت هذه النقود التى تأتىهم بانتظام لتسد نفقات البيت والأطفال
الثلاثة والزوج المسرف الأنيق . . . بل ما كانت تكفى لحفظ مستواهم
الاجتماعى بين الناس . . . ولم يفلح الأب ، برغم عمله المتواصل ، في
إنعاش حالته المالية . . . فاكثرت الوجوه وضائق الصدور لقلة النقود . . .
قالت الأم يوماً :

— لا بد من مخلص مما نحن فيه . . .

ولسكنها لم تجد السبيل سوى إلى الخلاص . . . قدحت زنادة
فكرها واستعرضت الحل تلو الحل فلم تظفر بنتيجة ما . . . وسطر الفشل

تجاعيد في وجهها الجميل ... فالأطفال في نمو مستمر وحاجتهم إلى التعليم
قد باتت قريبة فلا بد من المال لسد حاجتهم . . لا بد من المال . .
ولكن كيف السبيل إلى المال والأب غير قادر على زيادة موارده على
الرغم من إنفاقه وإسرافه ، والأم ، كما رأينا ، لم تهتد إلى مخلص مما هم
فيه من ضيق مع ثقتها بكأها وقدرتها ؟ ؟ ! !

وهكذا تنازعت البيت همسات خافتة كأنها تقول :

— لا بد من المال . . لا بد من المال . .

وسمع الأطفال هذه الهمسات ترددها الجدران ويرددها السقف . .
بل وترددها الوجوه المكتئبة والصدور الضيقة . . وسمع الأطفال هذه
الهمسات يوم عيد رأس السنة تنبعث من بين العرائس الثمينة والدمى
الغالية . . ومن وراء أرجوحة الحصان الخشبي والعروس ذات الرداء
الوردي الشفاف ارتفع الهمس :

— لا بد من المال . . لا بد من المال . .

وقف الأطفال عن اللعب فجأة ونظر كل منهم إلى الآخر فقرا بعضهم
في عيون بعض أن الكل قد سمع :

— لا بد من المال . . لا بد من المال . .

واتجهت العيون الساذجة في دهشة الى أرجوحة الحصان الخشبي ،
فراوه يطأطيء رأسه في ذلة ، كما أن العروس ذات الرداء الوردي
الشفاف قد تخضب وجهها بحمرة الخجل ... بل رأوا الكلب القطني

الصغير يحملق في بلاهة .. ولكن لم كل هذا؟؟!! .. لأن الدمى أيضاً
قد سمعت ما رددته الجدران :

— لا بد من المال .. لا بد من المال ..

لم ينطق إنسان بهذه الجملة الخطيرة لأن الجدران تهمس بها في كل
حجرة وفي كل مكان ... بل يهمس بها كل زفير وكل شهيق
في الصدور ..

قال بول الصغير لأمه يوماً ما :

— لم لا نقتنى سيارة مثلاً يفعل غيرنا؟؟ ولم نأخذ سيارة
العم أوسكار في روحاتنا وغدواتنا؟؟!!

— لأننا فقراء يا بني ولا تحمل مواردنا القليلة اقتناء السيارات .

— ولكن لم نحن فقراء يا أماه؟؟!!

فحمد وجهها وبرقت عيناها وأجابت في بطاء :

— لأن أباك سيء الحظ !

— وهل الحظ السعيد هو المال يا أماه؟؟!!

— كلا يا بني وإنما الحظ السعيد يأتيك بالمال ..

— إذا فما هو الحظ السعيد ؟ .

— هو الذي يأتيك بالكثير من المال .. ولذا ترى أنه من

الأفضل أن يولد الإنسان محدوداً من أن يولد غنياً .. فالغنى قد

يفقد ماله أما المجدود فلا ينضب حظه . .

— حقاً ؟ ؟ وهل والدى مجدود ؟ ؟

فحمد وجهها مرة ثانية وقالت فى مرارة :

— كلا لم يكن مجدوداً مطلقاً . .

فنظر إليها پول بعينين حارّتين وسألها :

— ولم ؟ ؟

— لست أدرى . . . بل لا أحد يدرى لم هو تاعس الحظ

أو سعيده ! !

— ألا يعرف أحد مطلقاً ؟ ؟

— الله وحده هو الذى يعرف السبب ولكنه لا يقوله لعباده . .

— وهل أنت مجدودة يا أماه ؟ ؟

— كيف أكون مجدودة وقد تزوجت رجلاً سيئ الحظ ؟ ؟ ! !

— ولكنى أقصدك أنت شخصياً بصرف النظر عن والدى . .

— لقد كنت مجدودة قبل الزواج . . أما الآن فأنا أسوأ

الناس حظاً . .

فسكت پول قليلاً وجعل يرقب أمه وقد ذبلت عيناها حزناً

وتغضن وجهها ألماً ثم قال فى حزم :

— أنا سعيد الحظ على كل حال . .

وانفجرت أمه ضاحكة وسألته :

— من أدراك ؟ ؟

بدت الخيرة على وجهه قليلاً ثم أجاب :

— لقد أخبرني الله بذلك . .

— كنت أتمنى لو أنه فعل يا بني !!

— ولكنه أخبرني يا أماء . .

فمرت ابتسامة ساخرة على شفتيها وقالت :

— عظيم !!

رأى پول أن أمه لم تصدقه ولم تعر كلامه اهتماماً فثار غضبه وتمنى لو أنه استطاع أن يقنعها بصحة ما يقول . . ولكن كيف السبيل إلى إقناعها وهي المرأة الصلبة الرأي ؟ ؟ . . وخرج پول من الحجرة مطأطئ الرأس مفكراً يبحث عن الطريق السوى إلى الحظ السعيد .

وتوالت الأيام وهو يهيم في الحجرات ويتنقل بين أشجار الحديقة وزهورها لعله يهتدى إلى بغيته . . وإذا ما أعياء السير يعود متهادياً إلى حجرته حيث تلعب أختاه الصغيرتان بالدمى والعرائس . . فيقف محملاً في حصانه الخشبي . . وبعد تأمل قليل يمتطى صهوته ويتناول سوطاً صغيراً يلهب به عنق الحصان المسكين قائلاً :

— أيها الحصان الغبي أين الطريق إلى الحظ السعيد ؟ ؟ . .

قدنى إليه . .

ويدفعه أماماً وخلفاً وقد سبحت عيناه في عالم بعيد . . . كان واثقاً

أن هذا الحصان سيقوده أخيراً إلى طريق السعادة والمال . .
ورأته المربية يوماً على هذا الحال فهتفت به :

— ستحطم حصانك يا پول . . .

فمالت شقيقته جون :

— إنه يفعل هكذا كل يوم . .

ولكن پول لا يجيب بل ينظر إليهما بعيون حاملة . . عيون تسبح
في عالم بعيد فتسكت الأخت وتهداً المربية وپول ما زال يتأرجح
دون انقطاع .

في يوم من الأيام دخلت الأم في صحبة العم أوسكار في حجرة الأطفال
حيث كان پول فوق متن الحصان في نوبة من نوبات التأرجح ونشوة
من نشوات الأمل التي لازمته أخيراً . . وضحك العم حين رآه على هذا
الحال وقال له :

— هل تمرن حصانك للسباق أيها الفارس الصغير ؟؟؟ !!

وتأفقت الأم وقالت تؤنب ابنها :

— ألا تخجل من ركوبه وقد بلغت الثامنة من عمرك ؟؟ . .

فلم يجب پول بل حدجهما بنظرة حاملة وجعل يتأرجح دون
انقطاع . . وبدا الطفل غامضاً في رياسته البريئة حتى وقفت الأم والعم
مشدوهين لا يقويان على النطق . وجأة قفز عن ظهر حصانه وصرخ في

صوت خالطه السرور والشعور بالنصر قائلاً :

— حمداً لله فقد وصلت أخيراً ..

سألته الأم :

— إلى أين يا بني ؟ ..

فبرقت عيناه فرحاً وأجاب :

— إلى حيث أردت الذهاب يا أماء ..

وضحك العم أوسكار وهو يربت على كتفه في رضا وحنان :

— قول جميل .. ونصيحتي إليك ألا تقف في أمر أبداً حتى

تصل إلى بغيتك منه ... والآن أخبرني ما اسم هذا الحصان ؟ ؟

— إن اسمه يختلف باختلاف الأيام .. ففي الأسبوع الماضي كنت

أسميه سان سوفينو ..

— سان سوفينو ؟ ؟ !! . الحصان الذي ربح سباق أسكوت في

الأسبوع الماضي ؟ ؟ .. أخبرني كيف عرفت اسمه ؟ ؟

وتطوعت جون الصغيرة بالإجابة وقالت :

— إنه يتحدث عن السباق دائماً مع پاسيت ...

وسر العم أوسكار بأن ابن أخيه يتتبع أخبار الجياد برغبة وحماس ...

وأضحكه كثيراً أن پاسيت البستاني هو الذي يمد سيده الصغير بما يحتاج

إليه من أخبار وأسماء ... فذهب العم إلى البستاني يستوضحه ...

ووقف پاسيت أمام العم أوسكار مرتعد الأوصال أصفر الجبين

وقال معتذراً :

— إن سيدى پول يسألنى عن السباق وعن أسماء الجياد التى
تشارك فيه فلا أجد مفراً من إجابته .

— وهل يراهن پول بشئ من المال ؟ ؟

— لا يمكننى الإجابة عن هذا السؤال وإلا غضب سيدى الصغير
واتهمنى بالوقیعة والخيانة .

وأطبق پاسيت شفتيه وأقلق فمه وأبى أن يتحدث بأكثر من
هذا . . . فعاد العم أوسكار إلى پول واصطحبه معه فى السيارة إلى
رياضة فى الخمول . . . وحين ابتعدت السيارة عن المنزل قال العم
مستدرجاً :

— ألا تراهن على بعض الجياد أيها الرجل الصغير ؟ ؟

وبدا الشك فى عينى پول ونظر إلى عمه فى تردد ثم قال :

— وهل هناك مانع يمنعنى من المراهنة ؟ ؟

— كلا طبعاً . . إنما سألتك لأننى أردت أن استرشد برأيك

فى سباق لنكولن القادم . .

— أهذا كل ما ترمى إليه ؟ ؟

— نعم . .

فقال له الطفل :

— شرفاً ؟ ؟ . .

فأجاب العم :

— شرفا . .

— إن كان الأمر كذلك فأنصحك أن تراهن على دافوديل .

— دافوديل ؟ ؟

وسكت العم أوسكار متعجباً . . فالجواد المسمى بدافوديل جواد

لا شهرة له ولا تاريخ . . . وهتف پول بقلق :

— عمه . .

— نعم يا بني ! .

— ألا فابق دافوديل سراً بيني وبينك فقط ولا تخبر به أحداً

مطلقاً لأنني وعدت پاسيت أن لا أذيع اسمه بين الناس

— فليذهب پاسيت إلى الجحيم فأى ساطان له عليك حتى تعده

بذلك ؟ ؟

وبدت الدهشة على وجه پول وقال في هدوء :

— وعدته لأنه شريكي . . بل نحن شركاء منذ أول الأمر . . ولقد

أعارني خمسة شلنات راهنت بها للمرة الأولى في حياتي فخسرتها . .

فلما أعطيتني أنت في العيد الماضي عشرة شلنات راهنت بها فربحت .

ومنذ ذلك الوقت وحظي في صعود ولولا فضل نقودك علي لما أخبرتك

بدافوديل . . .

ثم نظر إلى عمه بعينيه الزرقاوين الواسعتين وقد زادها الاستعفاف

جمالاً على جمال . . . فضحك العم أوسكار وقال :

— ليكن ما تريد . . وأعاهدك أن لا أبوح باسم الجواد لأحد
كأننا ما كان . . ولكن ما هو المبلغ الذى ستراهن به على دافوديل ؟؟
— كل ما لدى عدا عشرين جنيهاً أحفظ بها دائماً للطوارى . .
فقهقه العم أوسكار وقد ظن أن پول يمزح مزحة بريئة أو ينسج
أكذوبة من أكاذيب الطفولة الشائعة وقال للصبي :
— أتحفظ حقاً ، أيها الروائى البارع ، بعشرين جنيهاً للطوارى ؟!
وبكم إذا ستراهن على دافوديل ؟؟

— بثلاثمائة جنيه . . .

وعاد الشك إلى عيني پول فاستطرد :

— ولكنك وعدتني بشرفك ألا تبوح بسرى لأحد ؟ .

وعادت الابتسامة إلى شفتي العم أوسكار وقال :

— طبعاً . . طبعاً . . ولكن أين تخفى نقودك أيها الكاذب

الصغير ؟؟

— إن پاسيت يحفظها لديه لأننا شركاء كما أخبرتك . .

— حقاً ؟؟ وما هو المبلغ الذى سيراهن به پاسيت ؟

— إنه لا يخاطر مثلى ولذا سيراهن بمائة وخمسين فقط . .

— مائة وخمسين بنساً ؟؟ !!

فدهش الطفل لهذا القول ورفع رأسه فى أنفة وقال :

— جنيتها طبعاً!! فلدى پاسيت أكثر مما لدى . . .
وبين الدهشة والعجب سكت العم أوسكار ولم يخض في الحديث
بأكثر من ذلك . . ولكنه عول على أن يصطحب معه پول إلى
سباق لفكولن القادم .

في اليوم المعهود وقف پول بجوار العم أوسكار في ميدان السباق
يرقب الجياد وهي تجول قبل البدء . . قال العم :
— سأراهن بعشرين جنيتها على الجواد ميرزا . . . ولك مني
خمس جنيهات تراهن بها على ما تشاء فأيتها تختار؟؟
— دافوديل أيها العم :
— ولم اخترت دافوديل دون الجميع ؟
— لأنني أراهن لأربح لا لأخسر . .
فضحك العم وأجاب :
— ليكن يا بني . .

وبدأ الشوط الأول وجعل پول يرقب ، بعيون محمرة وجبين متورد ،
الجياد وهي تجري كسهم تخرق الهواء . . وربح دافوديل أما ميرزا
فكان الثاني . . . وأتى العم بأربع ورقات من فئة الخمسة جنيهات هي
ما ربحها پول . . . وتأمل الطفل نقوده بثؤدة ورزانة وقال :
— لدى الآن ألف وخمسمائة من الجنيهات وهذه العشرون ثم

العشرون التى أحتفظ بها للطوارىء . . فنظر العم أوسكار إلى ابن أخيه
فاحصا وقال :

— لا أظنك جادا فيما تقول ؟؟

— إننى لا أكذب . . ولكن تذكر أن ذلك سر بينى وبينك
فقط وأنت وعدت بشرفك ألا تبوح به لأحد . .
— طبعاً . . طبعاً . . ولكنى سأحدث إلى ياسيت لأتبين صدق
ما تقول . .

— إن أردت ، أيها العم ، أن تكون شريكا فمحن نرحب بك
ولكن على شريطة أن تعدنا بشرفك ألا يتعدى السر ثلاثتنا . . فأنا
سعيد الحظ . . . ولا بد أن تكون كذلك ما دامت ورقتك ذات
الشللانات العشرة هى التى أتنا بالحظ والمال .

اصطحب العم أوسكار پول وياسيت إلى رياضة قصيرة فى حدائق
رتشموند وجعلوا يتحدثون فقال ياسيت :

— وهكذا بدأ الحظ يواتينا . . فقد كان سيدى پول يسألنى كل
يوم عن الجياد . . . ونجلس معا ساعات طوالاً نتحدث فى تلك الأمور . .
وفى العام الماضى أقرضته خمسة شلنات فخسرها . . ثم أقبل الحظ علينا
بعد ذلك بفضل الشلنات التى منحتها إياها فى العيد الماضى . . وفى كل
مرة يتضاعف ما لدينا من المال . . أليس كذلك أيها السيد الصغير ؟؟

ابتسم پول سروراً وأجاب :

— إننا نربح ما دمنا واثقين . . أما إذا لم تثق فهنا الخطر . .

فعجب العم وسأل البستاني :

— وكيف تثقون ؟ ؟

فأجاب البستاني :

— لست أنا الذي أثق بل هو سيدي پول . . . فلقد منحه الله

هبة سماوية يكشف بها حجب الغيب وغيومه كما حدث مثلاً
في دافوديل . .

— وهل راهنت أيضاً على هذا الجواد ؟ ؟

— نعم ياسيدي لقد نلت نصيبي من الحظ السعيد . .

— وهل ربح پول ؟ ؟

فحمد وجه البستاني ولم يجب واتجهت عيناه في صمت إلى سيده
الصغير وقال پول :

— لقد راهنت بثلاثمائة جنيه فربحت ألفاً ومائتين . . . أليس

كذلك يا پاسيت ؟ ؟ . .

فأمن البستاني على قول سيده الصغير . . . فسأله العم أوسكار :

— ولكن أين النقود ؟ ؟

— إنني أحفظها في مكان أمين طوع أمر سيدي پول

— أتخفظ ألفاً وخمسمائة جنيه ؟ ؟

— نعم .. ثم أربعين جنيها هي ما كسبه معك اليوم وما يحفظه
للطواري ..

وعقدت الدهشة لسان العم فلم يستطع المزيد من القول .. وبرقت
عيناه بما يجول في نفسه من عواطف متضاربة .. استطرد البستاني :
— لو أحسنت يا سيدى لقبلت الاشتراك معنا دون تردد ما دام
السيد پول يريد ذلك .

وبقى العم أوسكار صامتا كأنه لم يسمع ما قيل له .. وصاح قائلا :
— أريد أن أرى النقود أولا ..

وعاد الثلاثة إلى المنزل .. وهناك في طرف قصي من الحديقة أخرج
البستاني نقود سيده الصغير .. أخرج ألفا وخمسمائة جنيه !!
فقال پول :

— هأنت ترى ، يا عماء ، أن الأمور تسير في مجراها السعيد طالما
كنت واثقا من الجواد .

— ولكن كيف تكون واثقا منه ؟؟

— إن الأمور تختلف باختلاف الأيام .. ففي بعض الأوقات
أكون واثقا من الجواد وإذا ذاك أراهن بكل ما لدى .. وقد أكون
متريدا فألعب بمبالغ متواضعة .. وقد أكون خالي الذهن تماما
وإذا ذاك أحجم عن التقدم وإلا خسرت ما لدى ..

— ولكن ما الذى يجعلك واثقا من جواد دون الآخر وأنت
تجهلها جميعا ؟؟

فبدا الارتباك على وجه پول وقال في تردد :

— لست أدري !! كل ما أعرفه أن قلبي يتحدثني باسم واحد منها...

ورفع البستاني رأسه وقال في جد :

— إنها هبة سماوية أودعها الله قلب هذا الصغير ..

قبل العم أو سكار أن يصبح شريكاً لپول وپاسيت .. ولما اقترب
سباق ليجر ألهم پول باسم الجواد سيارك .. وكان الطفل واثقاً من نجاحه
ولذا صمم على المجازفة بألف جنيهه ... وربح سيارك وأعطى اللاعبين
عشرة أمثال ما دفعوه ..

وضحك پول ضحكة مرحة ثم قال :

— هانت ترى ، أيها العم ، ما ربخناه لأننى كنت واثقاً
من الجواد ..

فبدا الخوف والتردد على وجه العم وأجاب :

— إنك تخيفنى بمثل هذه الأقوال ...

— ولم؟؟ فربما تمضى الشهور قبل أن أكون واثقاً مرة أخرى ...

— ولكن .. ماذا أنت فاعل بثروتك الكبيرة؟؟

— سأمنح والدتى خمسة آلاف منها لأننى بدأت العمل من

أجلها .. فلقد قالت يوماً إنها غير محدودة لزواجها من رجل سىء الحظ ..

وفكرت فى قولها كثيراً فقررت أن آتيها بما تريد حتى أعوض بعض

ما فقدته ... وحتى أضع حداً لما تهمس به الجدران ..

— ماذا تقول الجدران يا بنى ؟

— آه .. لست أدرى ... ولكنك تعرف طبعاً أننا فقراء وأن

إيراد والدى لا يكفي لحياة البذخ التى نرمى إليها .. ولذا يخيّل لى ،

كلما دخلت إلى حجرة ، أن الجدران تهمس فى أذنى قائلة : لا بد من

المال .. لا بد من المال ..

— إنك تحزننى بهذا القول يا پول .

— ولكنها الحقيقة ياعمه .. والأدهى من ذلك أنه كلما جاء دائن

يطالبنا بماله صرخت الجدران هازئة ضاحكة ، فيغلى الدم فى عروقى

وأخرج إلى الحديقة مسرعاً .. وهناك أرى كل شيء ساخراً منى حتى

الأزهار التى غرستها بيدي وتعهدها بعنايتى .

وترقرقت الدموع فى عيني پول وطأطأ رأسه حزناً فقال العم :

— وكيف نقدم لها خمسة الآلاف ؟؟

— لا أريد أن تعرف والدتى أننى سعيدا لحظ .

— ولم يا بنى ؟؟

— ستحرمنى إذ ذاك من السباق والمضى فيه ...

— كلا .. إنها لن تفعل شيئاً من هذا .

فبدا الغضب على وجه الصبي وقال فى عناد :

— لا أريد أن تعرف لا أريد أن تعرف ..

— ليكن يابول وسأتدبر الأمر وأرسل لها النقود دون أن تهتدى
إلى مصدرها . .

وتدبر العم أوسكار الأمر في سهولة . . . وحمل خمسة آلاف من
الجنهيات إلى محام كبير وأودعه إياها على أن يرسل للأم ألفاً منها كل
عام في يوم عيد ميلادها . . . ولم ينس العم أن يوصي الحامي بكتمان
اسم المرسل عنها وإبقائه سراً لا يبوح به لإنسان .

واقترب يوم عيد ميلاد الأم والجدران ما زالت تهمس في أذني
بول . . لا بد من المال . . . لا بد من المال . . وعلى مرّ الأيام اشتدت
هذه الهمسات فغدا الصغير شارد الفكر حزينا . . . ولم يعد يحب البيت
أو يطيق البقاء فيه . . . واعتزم أخيراً أن يحتمل الحال على مضض حتى
تتسلم أمه النقود . . . فمن يدري . . . لعل الجدران تخجل إذ ذاك وتترك
لهمس والضحك ؟؟؟ . .

اعتاد بول أن يتناول طعام الإفطار على المائدة الكبرى في صحبة
والديه . . . واعتادت الأم أخيراً أن تذهب إلى المدينة كل صباح لأنها
آنست في نفسها موهبة الرسم فاشتغلت سراً في تخطيط الأزياء الجديدة
لمشغل كبير تديره صديقة لها . . . وعلى الرغم من عملها المتصل ما كانت
تكسب من مهنتها إلا النزر الذي لا يفي بحاجة البيت والأطفال . . .

فبقيت على عهدها عابسة حزينة تلعن الحظ الذي يأتي إلا أن يقعدها
عن الثروة والسعادة ..

وفي صباح عيد ميلادها جلست الأم على مائدة الإفطار ... وجلس
بول بجوارها يرقبها في لهفة وشوق وهي تتصفح بريد اليوم ... وعند
ما تناولت خطاب المحامي خفق قلبه بشدة ... ترى ماذا تقول حين
تقرأ النبأ السعيد ؟؟ فتوقف عن الأكل وحدث في وجهها بعينيه
الواسعتين الزرقاوين ... ولكنها لم تبتسم ... كلا ولم ترقص فرحاً كما
كان ينتظر ... بل تجهم وجهها وازداد جموداً على جمود ... ولم تلبث
أن وضعت الخطاب جانباً وأكملت إفطارها ... وانتظر بول قليلاً
لعلها تقول شيئاً فطال انتظاره ... فساألها أخيراً :

— ألم يحمل إليك البريد شيئاً جديداً بمناسبة عيد ميلادك ؟ .

فأجابته في برود :

— مامن شيء أكثر من المعتاد .

وانسحبت في بطاء وخرجت من المنزل إلى الحديقة واجهة .

في مساء ذلك اليوم أتى العم أوسكار ، وأخبر بول أن والدته قد
قابلت المحامي وسألته أن يأذن لها بالمبلغ دفعة واحدة حتى تستطيع أن
تسد ما عليها من ديون ... وفكر بول قليلاً ثم قال :

— وما رأيك أيها العم ؟

— إنها نقودك يا بنى ولك أن تأمر بما تشاء . . .

— إذاً دعها تأخذ النقود دفعة واحدة كما تريد . . . وفي المستقبل

القريب سنحصل على مال كثير فنبعث به إليها في عيد ميلادها القادم .

— فكر جيداً يا بول . فقد تنفق أمك المال كله ، وقد لا نربح

بعد ذلك شيئاً ، فنعجز عن إمدادها في المستقبل ، وتعود الأسرة إلى

سابق عهدها . . .

— ولكنى واثق من معرفة أسماء الجياد الراجحة في السباق الأهل

القادم أو في سباق لنكولنشير أو الدربي على الأقل .

هكذا تسلمت الأم خمسة الآلاف من الجنيهات دون أن تعرف المصدر

الذى أهداها إليها . . . ولكن شيئاً غريباً حدث في المنزل بعد ذلك . . .

فالجدران لم تخجل ولم تسكت عن نداءها المتكرر . . . بل تعالى همسها

حتى غدا صراخاً في أذني بول . . . صراخاً يشبه صوت الضفادع ، وهي

تنق في ليلة من ليالى الربيع الصافية . . . حقيقة أن المنزل بدا في

صورة جديدة فامتلات الحجرات بالرياش الفاخر الثمين وتزينت الجدران

بالأزهار الياقة النادرة ، ولكن من بين هذه الأشياء الجديدة المتنوعة

كان ينبعث هتاف الجدران ، وهي تصرخ مولولة . . . لا بد من

المال . . . لا بد من المال . . . الآن . . . الآن . . . وأكثر من ذي

قبل .. لا بد من المال ... لا بد من المال ...
وطاردت پول تلك الأقوال القاسية أينما ذهب حتى كادت تذهب
برشده ... وكان يجري كالجنون ، وينتقل في رعب من غرفة إلى
غرفة ... فإذا ما خارت قواه خرج إلى الحديقة ، وقد اصفر وجهه
وجحظت عيناه ..

أتى السباق الأهلئ الكبير و پول غير واثق من الجياد فراهن
بالتقليل من المال وخسره .. واقترب معه سباق لنكولنشير والصغير
فى حزن قاتل لا يعرف مادهاه ... فلقد كان غير واثق كذلك ...
وازداد وجهه اصفراراً كما ازداد بدنه نحولاً فقال له العم أوسكار يوما :
— دع السباق يا بنى ولا تهتم بأمره وإلا فقدت رشذك ...
فأجاب الصبى وكأ أنه لم يسمع ما قيل له .
— يجب أن أربح الدربى .. لا بد أن أهتدى إلى الجواد ...
لا بد أن أهتدى إلى الجواد ...

والتمعت عيناه ببريق من الثورة والعزم .
ولا حظت الأم يوما شحوب ابنها وهزاله . فقالت له :
— إنك فى حاجة شديدة إلى الراحة والهدوء ، ولذا سأبعث بك
إلى الشاطئ ، لعل هواء البحر العليل ينعشك ويعيد إلى وجهك نضرتة
وصفاه ...

وارتسم الرعب على وجهه وأجابها :

— لا أستطيع الذهاب قبل الدربي .. لا يمكنني بأية حال ...

فغضبت الأم ، وقالت في جمود :

— ولم لا؟؟؟ . . فباستطاعتك الذهاب في رفقة عمك من

الشاطيء إلى السباق . . وعلى كل حال إن اهتمام طفل مثلك بالسباق

نذير شؤم . . وليس للصغار أن يشتغلوا بأمور المقامرين والغاوين . .

— سأفعل كل ما تطلبين إذا أذنت لي بالبقاء هنا إلى الدربي . .

هنا؟؟؟ . . في هذا البيت؟؟؟ . .

— نعم يا أماه . . .

— ولم هذا الاهتمام والحب للبيت ، وعهدى بك أنك كاره له

متدمر منه؟؟؟ . . فلم يجب بول وظل يرقبها صامتا ، وقد امتلأت عيناه

بالرجاء والاستعاف . . ففي حجرتة سر النجاح . . ذلك السر الذي

أخفاه عن الجميع حتى عمه أوسكار وشريكه پاسيت . . .

وازدادت نظرتة الصامته قوة فترددت الأم وأجابت :

— ليكن . . لن أرسل بك بعيداً على أن تعدني أن تكون

معتدلاً في الاهتمام بالسباق . .

— طبعاً . . طبعاً . . لن أتكلم ، ولن أفعل إلا ما ترغبين . . .

فلا تكثرني بي . . لو كنت مكانك لما اكرثت يا أماه .

— لو كنت مكانى وكنت مكانك لانقلبت الأمور!! .

— فى استطاعتك ألا تهتمى بى يا أماء . . . أقصد يجب
ألا تبدى اهتماماً كثيراً بما أفعل . .

كان السر العظيم الذى يحتفظ به پول ويخفيه عن الآخرين هو
حصانه الخشبى المتأرجح . . . ولذا حرص على قربه ونقله إلى حجرته
الخاصة بجوار الفراش . . . وغضبت الأم لإصراره على الاحتفاظ به
فقال مؤنبه :

— ألا تخجل من امتطائه ، وأنت فى العاشرة من عمرك ؟ ؟
— إننى لا أمتطيه ، ولكنى أحب أن أحتفظ به إلى أن يتاح لى
حصان حقيقى . .

— لعله يؤنس وحدتك ؟ ؟

— أوه طبعاً . . فهو صديق أمين يبدد بوجوده الوحدة والسأم .
وهكذا استطاع پول أن يقنعها بضرورة بقاءه فى حجرته بجوار
فراشه . . .

اقترب سباق الدر بى فازداد پول شروداً وتفكيراً . . . لم يعد يسمع
ما يقال له أو يجيب على سؤال . . . وعلا وجهه الشحوب واستدارت
حواله عينيه الزرقاوين هالة سوداء . . . وشعرت الأم بقلق شديد نحو
ابنها فكان قلبها يفيض ألماً كلما نظرت إلى وجهه الذابل . . . وكما
ابتعدت عنه قليلاً عاودتها رغبة مفاجئة ملحة فى الرجوع إليه للاتئنان
على سلامته .

ودعيت الأم يوماً إلى حفل كبير أقامه ثرى معروف دعا اليه خاصة
الناس وأكرم الأسرات . . . وكان ذلك قبل سباق الدر بنى بيومين . . .
وبينما هى تسير وسط أفواج المدعوين والمدعوات إذ شعرت فجأة برغبة
جامحة فى رؤية پول . . . وقاومت تلك الرغبة فازداد قلقها حتى انعقد
لسانها عن النطق . . . فسارت مسرعة الى المسرة وطلبت منزلها فى
لهفة . . . وسألت المربية قائلة :

— هل الأطفال جميعاً بخير ؟ ؟

— طبعاً فالكل على ما يرام .

— وپول أهو بخير أيضاً ؟ ؟

— لقد ذهب منذ الساعة الثامنة إلى فراشه . . . وسأذهب لرؤيته

الآن إن كنت تحبين . . .

فاطماً أنت الأم وأجابتها فى دعة :

— لا . . . لا حاجة إلى الذهاب فعودى إلى فراشك .

وفى الساعة الواحدة من الصباح عادت الأم فى صحبة زوجها إلى
المنزل . . كان السكون مخيماً والهدوء شاملاً . . . فسارت الأم إلى
حجرتها فى هدوء . . . وما كادت تخلع ثيابها حتى عاودها القلق . . . واشتد
حنينها إلى رؤية پول فوضعت غلالة رقيقة على كتفها وتسالت إلى الخارج
بخطى حذرة . . . وسارت حافية القدمين إلى حجرتها . . . وما كادت
تصل إلى بابها حتى جمدت فى مكانها خائفة . . . فلقد طرق سمعها صوت

من الداخل . . . أهو صوت حقيقى أم هو تصوير القلق الذى استحوذ
عليها أخيراً؟؟!! . إنه صوت عجيب یرن فى سكون الليل البهيم . . .
واشتد الصوت وضوحاً وجلاء . . فاشتدت ضربات قلبها . . . ترى
ماذا يكون هذا الصوت؟؟ . . يجب أن تعرف حالا . . . وهكذا
وقفت بين إقدام وإحجام والصوت دائماً لا ينقطع . . أدارت مقبض
الباب فرأت الحجره مظلمة ولكنها استطاعت أن تميز جسماً يتحرك
دون هواده أو انقطاع . . . وأطلقت النور فرأت پول فى ثياب النوم
يمتطى صهوة الحصان الخشبى ويدفعه أماماً وخلفاً فى جنون . . .

هتفت :

— پول . . بربك ماذا تفعل؟؟

فصرخ فى وحشية قائلاً :

— إنه ما لا بار . . . ما لا بار!!

وتصلبت عيناه وتصلبت أطرافه وهدأت حركة الحصان ثم سقط
الصبي على الأرض فاقد الرشاد .

اجتمعت الأسرة حول پول الذى ظل فى غيبوبته الشديدة منذ أن
سقط عن الحصان . . . كان يعانى حمى دماغية خطيرة . . . وظل يهذى
فى غفوته ويتكلم . . . ويشور فى بعض الأحيان رغبة فى القيام الى
الحصان الخشبى الذى قاده إلى طريق السعادة والمسال . . . وظل صوته
یرن فى أرجاء البيت مردداً :

— مالابار . . . مالابار . . . ألم أقل لك يا ياسيت إننى واثق . .

إنه مالابار . . . مالابار . . . !!

سألت الأم زوجها فى حزن :

— ماذا يقصد بمالابار ؟؟

أجاب :

— لست أدرى . . .

فالتفتت إلى العم أوسكار تستوضحه :

— ماذا يقصد بمالابار ؟؟

أجاب :

— إنه أحد الجياد التى ستجرى فى سباق الدربى . . .

وانسل العم من الحجرة إلى الحديقة . . . وأسر إلى البستانى باسم

الجواد . . . وراهن العم بألف من الجنيهات . . . ولعب البستانى

المخلص لحساب سيده الصغير بكل ما يمتلك من مال . .

ومضت أيام ثلاثة و پول مازال فى غيمو بته . . . واشتد عليه المرض

فأقلقت حالته الأطباء . . . وازداد جسده نحولا وتحجرت عيناه الزرقاوان

الجميلتان . . . والتهب وجهه تحت وطأة الحمى والهديان المستمر . . .

وجلست الأم بجوار الفراش ترقب صغيرها بقلب دام وعينين دامعتين . .

وفى مساء هذا اليوم أرسل ياسيت يطلب المثل بين يدى سيده

الصغير . . . وضاعت الأم ذرعا بتطفل البستانى ولكنها أذنت

له في النهاية أملا في أن يعيد وجوده ابنها الى رشده .

دخل البستاني بقامته القصيرة وعينيه الضيقتين وشاربه الكثيف ..
دخل مطأطئ الرأس إلى الفراش حيث رقد بول .. وانحنى فوق
رأس الصبي وقال له :

— سيدى پول ... سيدى پول .. لقد ربح مالابار ... ربح
وأعطى أربعة عشر ضعفاً لما دفعناه ... لديك الآن ثمانون ألفاً
من الجنيهاً ... ثمانون ألفاً كاملة ...

فرفع پول رأسه وبرقت عيناه المظلمتان وقال :

— مالابار ... مالابار ... ألم أقل إنه مالابار يا أماه ... ألم
أقل إنه مالابار ... أأست مجدوداً يا أماه ؟ ؟ .. أأست سعيد الحظ ؟ ؟
ثمانون ألفاً من الجنيهاً !! .. هذا هو الحظ ... هذا هو المال ... !!
إنك الآن غنية يا أماه .. غنية وسعيدة ... لقد كنت واثقاً فربح
مالابار .. إنه الحصان الخشبي الذي ياسيت الذي يهمس باسم الجواد
الرابح ... إنه الحصان الخشبي الذي قادني إلى طريق السعادة والمال ...
أماه ... أماه ... ألم أقل لك إننى سعيد الحظ ؟ ؟

وسقط رأسه على الوسادة وأظلمت عيناه وراح في غيبوبة طويلة ...



مات الملك ... عاش الملك

للكاتبة الانجليزية الكبيرة ماري كولوريدج

كان الهدوء كاملاً والحزن شاملاً عند ما لفظ الملك أنفاسه الأخيرة... فاقوم يروحون ويحيئون في خطى خافتة وهم يهمسون في اهتمام... ولما كان الكل يخفض من صوته ويهدى من وقع أقدامه سرت في الجو همهمة تثير الأعصاب...

ولكن لم كل ذلك؟؟ قال الأطباء إن الملك قد مات ولم يعد يسمع شيئاً وإلا سمع زفرات زوجته الحسنة وهي راكعة تبكي أمام الفراش... وفي الأيام الماضية كانت الستائر تسدل لتعجب النور عن المريض... ولكن في هذه اللحظة، التي عم فيها الحزن والارتباك، لم يعن أحد بحجب النور عن الأعين المعتمدة الراقدة فوق الفراش... ولم لا يكون ذلك وقد قال الأطباء إنه لم يعد يرى أحداً؟؟!!

وهكذا رقد الملك الميت وقد سقطت يده على حافة الفراش كأنها تبحث عن شيء... وعلت وجهه هيبة الملك... وارتسمت على فمه ابتسامة رقيقة... فردد الكل:



كان السكون شاملاً والهدوء الجميل يملأ الغرفة حين عاد الملك إلى نفسه ... فروعة الموت ترفرف على المكنان ... وأريج الأزهار يملأ الجو ... ونسيم الليل العليل يدخل في رقة فيداغب الشموع المشتعلة عند قدميه ... وأخذ الكرى بأعين الحراس الأربعة فنام كل منهم معتمداً برأسه على حافة الفراش .

أحس الملك الميت شعوراً غريباً وراحة صامتة كأنه يرقد في السماء ... فلم يتحرك خشية أن يعكر صفو اللذة السماوية التي أفعمت نفسه ... ثم سمع ساعة القصر تدق الحادية عشرة فجلس في فراشه ضاحكاً .. وعادت به الذاكرة عندما وهنت قواه وأشرف على الموت فجمع ما بقي من قوته وصرخ إذ ذاك باكياً شاكياً ظلم الموت ... الموت الذي أبى إلا أن ينتزعه في وقت كانت بلاده أحوج ما تكون إليه ... وظل يشكو ويبكى .. يصارع ويقاوم .. حتى حل به التعب وأنهكت قواه وفاضت روحه ... إذ ذاك سمع هاتفاً يقول له :

— سأمنحك ساعة تحيي فيها بعد المات ... فلو أمكنك أن تجد

خلالها ثلاثة يحبون لك الحياة لو هبتها لك !!

هذه إذاً هي الساعة التي انتزعها من الموت فكم يا ترى مضى منها

إلى هذه اللحظة ؟ ؟

كان هذا الرجل ملكاً عظيماً عادلاً . . . عمل ليل نهار لإسعاد شعبه وإعداد وسائل الرفاهية له . . . ولم يبخل بمال أو جهد بل بذل الثروة والراحة والوقت الثمين ، دون أسف أو أنانية ، لرفعة بلاده وعظمتها .

وعندما أشرف على الموت لم يحزنه الموت في حد ذاته ولم يرعه القبر بل بكى وصارع من أجل المشروعات العظيمة التي لم تكتمل بعد . . . فمن المؤلم حقاً أن يموت قبل أن يؤدي رسالته كاملة في الحياة ! ! . . . وتذكر الآن أعماله الكثيرة فبدت له تافهة فتمنى لو أنه فعل أكثر . . . ولكن ما حيلته وهذا كل ما أمكنه أن يؤديه ؟ ؟ .

ونفض الملك خارجاً من الحجرة فبدت الحياة له جميلة مغرية . . . ولم يحس من قبل بمثل هذا الجمال . . . وشعر أن السكون فسيح كبير أوسع جداً مما كان يتصور . . . وأحسن أيضاً أن قلبه ما زال يشتعل بحب شعبه وبلده فأسف لفراقهما وود لو يأخذ معه إلى الآخرة هذا الشعب وهذا البلد . . . ولكن الأمانى ، والأسفاه ، لا تغير شيئاً من الأمر الواقع ! !

وقف الملك عند الباب متردداً لا يعرف أى اتجاه يبدأ به . . . لن يبدأ بالملكة فقد أزعمه أن يراها في حزنها القاتل عليه . . . كلا . . . لن يراها حتى يجد الثلاثة الذين يرغبون له الحياة . . . وإذ ذاك فقط

يدخل عليها مبشراً ويأخذها بين ذراعيه ويبكى معها فرحاً بعودته إلى
الحياة مرة أخرى . . . ولن يغيب أكثر من ساعة واحدة وقبل أن
ينتصف الليل سيكون في أحضانها مرة أخرى . . . وسينسينني في ظل
حبها الماضي بحلوه ومره وينظر إلى الموت كأنه حلم بعيد . . . وتذكر
الملك ما قاساه على يدي الموت فتنهد وقال لنفسه :

— ولكن هذا الحلم سيعود يوماً ما . . . ألا ما أحلى الخلود وما
أقبح الموت !!

ثم سكث قليلاً وقال :

— ولكني لم آت جرماً ولم أقترف شيئاً أخشى منه في الآخرة . . .
وشعر براحة فابتسم ثم نظر إلى المدينة وهي تلوح من بعيد تحت ضوء
القمر وقال :

— يا لكرم الموت باقتراحه هذا الاقتراح . . . إنه يطلب مني ثلاثة
يحبون لي الحياة . . . سأجد ثلاثة آلاف لا ثلاثة فقط . . . أليس
الكل أصدقائي ؟ ؟

عند ما وصل الملك إلى سلم القصر رأى هناك طفلة صغيرة تبكي
بحرارة وحزن . . . وسمع الحارس يقول لها في رفق :

— مالك تبكين يا بنية ؟

أجابت وقد خنقتها العبرات :

— لقد ذهب أبى وأمى إلى القصر لأن الملك قد مات ولكنهما لم يعودا إلى الآن .. وإنى تعبنة وجائعة وليس فى البيت طعام ... وقد كسرت دميقي أيضاً ولم يبق لى ما ألع به ... أو اه ليت الملك لم يمت .

ثم انفجرت فى عاصفة شديدة من البكاء .. فوقف الملك يرقبها وقال فى نفسه :

— هذه أول الثلاثة الذين أبحث عنهم بين رعيقي ...

وكان الملك لم يرزق أطفالا فى حياته على الرغم من حبه لهم وتعلقه بهم ولذا أحس رغبة فى أن يأخذها بين ذراعيه ويخفف عنها بكلمة طيبة ... ولكنه تذكر أن الوقت قد أزف وعليه أن يسرع إلى بيت صديقه « أماياس » ذلك الصديق الذى أحبه دون الجميع واصطفاه من بين الآخرين ... وعنه السرور الممتزج بالأسى وقال :

— مسكين أماياس .. لا بد أنه يذوب الآن حزناً لفراقى ... فلو أنه هو الذى مات لحزنت عليه كل الحزن ولتخطمت من وقع المصاب ..

ووصل الملك إلى بيت صديقه فرأى ما أدهشه ... فناء الدار يموج بالأنوار ... والخدم يسرجون الخيل فى سرعة وهرج ... والقصر كله فى حركة ونشاط ... ولكن أين أماياس ؟؟ أين الوجه العزيز الذى يعرفه ؟؟ .. أطل الملك فى البهو باحثاً عنه فلم يره ... دخل حجرات

القصر حجرة حجرة فلم يجده أيضاً . . . فانتابه الذعر وتملكه الهلع خوفاً
من أن يكون صديقه قد قضى حزناً .

وانتهى به المطاف إلى جناح صغير في القصر يعرفه جيداً . . . جناح
قضى فيه الساعات الذهبية في ضيافة أماياس . . . ولم يكن الصديق
هناك أيضاً وإن كانت الآثار تدل على أنه كان فيه منذ وقت قصير . .
فالأوراق منشورة والأثاث مهوش والكتب مبعثرة هنا وهناك . . . ورأى
على أرض الحجرة صورة محطمة التقطها الملك فعرف فيها صورته . .
فأفلتها من بين يديه كأنها عقرب تلدغه . . . ونظر إلى الموقد فرأى
النيران تأكل خطابات كثيرة . . . هي خطابات التي كان يرسلها تباعاً
إلى صديقه الوفي !! وردد البهو صدى أقدام آتية ثم دخل رجل في
لباس الفرسان تصحبه ربة الدار . . . وسمع الملك الفارس يسأل السيدة :
— ولكن أين أماياس ؟؟

— لقد ذهب يقدم فروض الطاعة للملك الجديد . . . فنحن ، كما
نعلم ، في مأزق حرج لأن هذا الملك يكره سلفه ولا يقره على مشروعاته . . .
ومن الجائز أن تقف صداقة أماياس الراحل عقبة في سبيل مستقبله . . .
وأمل أن يصل في وقت مناسب ليسالم الملك الجديد ويجتذبه . . .
فالأخر قد مات وانتهى أمره والآن يجب علينا أن نفكر في أنفسنا . . .
وأجاب الفارس ، وقد عرف الملك فيه أحد سفرائه :

— صدقت وسأتبع أماياس في الحال . . . والحقيقة أن موته في

صالح البلد ، فقد أكرهني على عقد معاهدة سامية عادت علينا بخسائر
فادحة . . ومن حسن الحظ أن الملك الجديد من أنصار الحرب ، ولذا
ستدب الحركة والنشاط في الجيش بعد أن طال خوله وركوده . .
ولم ينتظر الملك الميت أكثر من ذلك ، بل خرج منكس الرأس ،
وقال لنفسه :

— فلاأسرع إلى الأحياء الفقيرة ، فهناك شعبي الذي يحبني ،
والذي عملت له ما لم يعمله سواي . . .
ودقت الساعة معلنة مضي الربع الأول بعد الحادية عشر . . .

سار الملك إلى الأحياء الفقيرة بخطى سريعة . . . وكان يعرف
الطريق إليها جيداً لكثرة ما تفقدها متخفياً . . . ولولا جولاته الليلة
في هذه الأحياء لما استطاع مساعدة الفقراء ، وتخفيف وطأة الجوع
عنهم . . . ولولا هذه الجولات أيضاً لما التقط الحمى الخبيثة التي حيرت
الأطباء ، وذهبت بحياته . . .
ضحك الملك ، وقال :

— الآن لاخوف على من المرض !
وهناك رأى الناس يقفون في الطريق زرافات ووحيدانا ، وهم
يتحدثون عنه . . كان اسمه على كل لسان ، وتفاصيل مرضه ، وموعد
تشييع جنازته الحديث الوحيد بينهم . . . وانتحى ستة رجال منهم

ناحية حول مائدة محطمة يحسسون الخمر في حان وضع . . . واقترّب
الملك منهم باسمًا فسمع أحدهم يقول :

— لقد مات أخيراً ، ولقد كان سفيها يتصدق على الفقراء بكل
ما يمتلك مما شل حركة التجارة ، وأوقف العمل . . . يقولون إن
الأعمال ستنشط في ظل الحكم الجديد . . .

وقال الثاني :

— أي والله لقد كان متطفلا يتدخل فيما لا يعينه . . . وقد حتم
علينا السكنى في منازل خاصة والأكل في مطاعم منظمة !! . . . ماله
وشؤوننا ولم لا يتركنا نعيش كما نشاء ؟؟ !!

وهتف الثالث :

— إنني أكره الملوك لأنهم متعجرفون . . . وإن كان لابد من
واحد منهم فليكن شاباً طروباً يعرف لذة الخمر ولا يخاف زوجته !!
فانبرى الرابع قائلاً :

— ويغظني منه بعض التصرفات العجيبة . . . فلقد أراد مثلاً أن
يلغى حكم الإعدام ويبدله بالأشغال الشاقة . . . طبعاً ! . . . لكي يلهو
بسجن المذنبين وتعذيبهم ! . . . إنني أفهمه جيداً فهو يريد أن يحرمانا
لذة التلهي برؤية المشنوقين . . .

وصادف هذا القول هوى في نفوس الجماعة ، فأمنوا عليه بحماسة
شديدة . . . ودقت الساعة معلنة حلول النصف بعد الحادية عشرة . . .

فعاد الملك من حيث أتى . . . وسار بخطى أثقلها الحزن والغضب . . .
ورغب أن يعرف رأى أعدائه فيه بعد أن عرف ما انطوت عليه نفوس
أصدقائه من جحود ونكران للجميل . . . فالتجه نحو سجن المدينة . . .
وعندما وصل إليه دخل في هدوء وطاف بالمرات الطويلة حتى وصل
إلى حجرة المحكوم عليهم بالإعدام . . . وفي هذه الحجرة كان يجلس رجل
صغير الجسم مهوش الرأس يركع على ركبتيه ويكتب في اهتمام . . .
ودخل حارس السجن على المذنب فقال :

— لقد كان الغد هو الميعاد المحدود لشنقى . .

وكأنما خشى أن يتهمه الحارس بالجبن فتدارك بسرعة قائلاً :

— ولكننى على تمام الاستعداد لاستقبال الموت . . . فهل لك
يا سيدى أن تتفضل وتحمل هذه الرسالة إلى زوجتى لأنها رسالة الوداع؟
وأجاب الحارس :

— لقد مات الملك يا صديقى وتولى العرش عاهل جديد فأمر بإلغاء
أحكام سلفه . . . وسيطلق سراحك غداً باذن الله . .

فحمل الرجل في ذعر وقال :

— هل مات الملك حقاً؟؟

— نعم .

فمر المذنب بيده فوق جبينه وارسم الحزن العميق فى عينيه وقال :
— يا لسوء حظ هذا البلد . . . لقد كنت أحترمه على الرغم من

أنه حكم على الموت .. فقد عاملنى فى محاكمتى معاملة الرجال ... ليتته
لم يمت ...

ودقت الساعة معلنة الربع الثالث بعد الحادية عشرة ..

عاد الملك منكس الرأس كسير القلب وقد شعر بحقارة شديدة فى
نفسه فلقد آلمه عطف عدوه أكثر مما آلمه تنكبر أصدقائه له ...
ولكنه احترم هذا الرجل النبيل وأعجب بشهامته ...

وفى طريقه إلى القصر جعل يستعرض ما مر به من حوادث فكره
هذه الدنيا التى يكدح الانسان فيها ويضحى فتقابل تضحيته بالجحود ...
أهذا هو الشعب الذى شقى من أجله كثيراً؟ وهل هؤلاء هم الأصدقاء
الذين بذل فى سبيل إسعادهم الجهد والمال؟ أهذه هى الأحياء الفقيرة
التي أدركته بجولاته فيها عدوى المرض؟؟ ومن الذى تمنى له الحياة
بين كل هؤلاء الناس؟؟ .. طفلة غريبة وعدو كريم؟؟ فتمنى لو أنه
مات ألف موة فذلك أفضل عنده من أن يعود إلى الحياة بفضل هذه
الطفلة أو هذا العدو !!

فقرر أن يعود إلى فراشه ويستسلم لما قدر له فالموت رحمة وأى
رحمة ... ليتته ما قبل منحة الموت فلو لم يقبل لكان يرقد الآن آمناً
وفى قلبه أجمل الذكرى للدنيا والناس ...

وانقشعت الحجب عن نفسه وعرف مرارة الحقيقة ... وشعر أنه

يرى العالم بعين غير التي اعتادها . . . وتكاثفت سحب ثقيلة
فحجبت ضوء القمر الفضى . . . وهبت رياح باردة فسرت في جسد
الملك رعدة . . . وأحس بفراغ ووحشة فاضطرب قلبه بين ضلوعه . . .
إنه وحيد بأُس فمن له بحب واحد يشد أزره ؟؟؟ !!

لم يبق للملك إلا دقائق معدودة من الساعة التي منحه إياها ملاك
الموت . . . وهذه الدقائق هي كل ماتبقى له من الحياة . فارتاح لذلك قلبه
وهذا ذهنه فسار إلى حجرته بخطى ثقيلة . . . ولكنه تذكر زوجه
الحسنة التي أخلص لها الحب فتردد قليلاً . . . أذهب إليها ؟ لا . .
فقد يجدها كالأخرين فتكون الطامة الكبرى . . . ولكنه عاد وقال :
— ولكنني لم أعمل إلا ما يسعدها ويرضيها فليس هناك إذاً
ما أخشاه !!

ودخل حجرتها فراها تجلس وحيدة وقد اعتمدت برأسها فوق
ذراعيها . . . وتهدل شعرها على كتفيها كأمواج من الذهب . . . والتمتع
خاتم الزواج في أصبعها . . . وكانت في حزن شديد فندم على تشككه
في حبها له . . . وعجب كيف تتركها الوصيفات وحيدة في مثل هذا اليوم
العصيب !! . ألم يكن من اللائق أن يبقين إلى جوارها ليخففن عنها
ألم المصاب ؟؟ وتمنى لو أنها نطقت باسمه مرة واحدة ولكنها لم تفعل
لأنها كانت حزينة واجمة . . .

وسمع الملك صوتاً ضعيفاً في الحجرة فأجفل، ثم رأى باباً صغيراً
في الحائط يفتح ودخل منه رجل في مقتبل الحياة ... وحينما رآته
الملكة رفعت أصبعها إلى فمها محذرة ثم اندفعت إليه قائلة :
— حمداً لله أن جئت أخيراً ... آه لو تعلم ما عانيت من ألم وأنا
أمسك بيد زوجي طيلة ساعاته الأخيرة ؟؟؟!! .. لذا تراني خائفة مذعورة
ويخيل إلي أن شبحة سينقض على في كل لحظة .. ولكن لا ... لن يعود
بعد الآن فقد مات والموت لا رجعة له .. وسنسعد بحبنا إلى الأبد ..
قالت هذا وألقت بنفسها بين ذراعيه ثم خلعت خاتم الزواج وقدمته
إليه كعربون لهما ...

حينما دقت الساعة معلنة انتصاف الليل ترددت في حجرة الملك الميت
ضحكة هازئة أطلقها ملاك الموت القابع خلف الفراش ... فقام الحراس
الأربعة من نومهم فزعين وتفقدوا المكان فلم يجدوا أحداً غريباً ...
وكانت الحجرة في هدوء كامل ... والمشاعل ما زالت موقدة ...
والملك الميت يرقد في مكانه على الفراش ... ولكنهم لاحظوا أن
أن الابتسامة الجميلة قد ذهبت عن شفتيه ... وحل مكانها تعبير من
الألم الصارخ والاشمئزاز الشديد ... فهتف أحدهم قائلاً :
— أقفلوا الأبواب ولا تدعوا الملكة تراه على هذه الصورة وإلا
انفطر قلب المسكينة حزناً وألماً ...

الأول والأخير

« والأولون آخرون والآخرون أولون »

للكاتب الانجليزى الكبير جون جولدزورذى

١

جلس كيث دارنت القاضى الأنجليزى المعروف فى حجرة المكتبة
من قصره المنيف . . . وكان الظلام سائداً والشموع القليلة الموقدة
ترسل أشعتها الحمراء الخافتة فى رفق وتؤدة فينعكس ضوءها الباهت
فوق الرياش الشرقى الثمين . . .

جلس هكذا فى مقعد وثير يرقب نيران الموقد فى لذة وارتياح . . .
وكانت تلك الحجرة أحب مكان إليه يلوذ بها كل ما اشتد به التعب
والارهاق فيجد فى كتبها المكسدة . . . وتحفها النادرة . . . وفى الجو
الخيالى الساحر الذى ينبعث منها راحة وهدوء . . . وفوق هذا المقعد
الوثير وبجوار الموقد المشتعل تصفو نفس القاضى الكبير وتبتعد عن ذهنه
المتعب صور المتهمين والمتهمات . . . صور مئات الوجوه البائسة التى
تمر به كل صباح فيرسل بها إلى الموت أو السجن دون رحمة أو رأفة . . .

وطالما أحس في هذه الحجرة بهاتف الشفقة ينبعث صارخا من بين
أطواء القسوة والشدة اللتين جبلت عليهما نفسه . . . ولكنه كان دائماً
يصم أذنيه ويغلق قلبه دون هاتفه الرقيق . . . فهو ممثل العدالة في البلاد
وظل الله فوق الأرض ينزل العقاب بالمجرمين والخطئين . . . إنها
العدالة فما له إذاً وللوجوه البائسة ؟؟ ما له وللزفرات المتصدعة والدموع
المهمرة في حضرتة ؟؟ . . . الخزم والشدة هما دينه وديدنه . . . الخزم
والشدة هما خلقه وطبيعته . . . فليذهب الخطيء إذاً إلى السجن . .
وليدذهب المجرم إلى الموت .

حين وصل كيث بتفكيره إلى هذه النقطة لاحت على شفتيه ابتسامة
شيطانية . . . وألقى برأسه فوق ظهر مقعده وأحس أنه في حاجة إلى
الراحة قبل أن يأتي المساء بدعواته وسهراته .

كان كيث يعيش في هذا القصر وحيداً منذ ماتت زوجته وخلفت
له طفلة صغيرة جميلة أرسل بها إلى مدرسة بعيدة . . . ومنذ ذلك العهد
لم يشعر بحاجة إلى امرأة . . . فما أعجب الطبيعة وما أشد تناقضها ؟؟
ما أعجب الطبيعة حين جعلت منه قاضياً كبيراً لا يهتم بالنساء ولا يجد
في صحبتهم ضرورة . . . بينما شقيقه لورنس قد تردى في هاوية الفقر
والانحطاط لكثرة ما أحب من النساء ولكثرة ما أنفق عليهن ؟!

لقد أنجبتهما أم واحدة وجرى في عروقهما دم واحد ومع ذلك فما

أبعد الفارق وما أشد الاختلاف !! . . تأوه كيث بحزن وأغمض عينيه
في ثقائل ولم يلبث أن أخذته سنة من النوم .

استيقظ القاضي فجأة وقد امتلأ قلبه بشعور غريب . . وأحس
كأن إنساناً يقف بجواره . . . ودون أن يحرك رأسه هتف سائلاً :
— من هناك؟؟ . .

فترددت في الجو زفرة حائرة فصاح مردداً :

— من هناك؟؟ . .

— أنا لورنس . .

وكان صوت أخيه ذليلاً متهدجاً بعث الرعدة في جسد
القاضي الكبير :

— ادخل إذاً . . . لقد غفوت قليلاً فلم أشعر بقدمك .

ولم يحرك رأسه . . ولم يقبل على ضيفه . . بل بقي جالساً في مقعده
يرقب اللهب الذي ينبعث من الموقد في عظمة وغرور . . . فلم تكن
زيارات لورنس مما يرحب بمثلها كيث !! واقترب الأخ فترددت أنفاسه
واضحة وانبعثت رائحة الخمر من فمه . . فازداد القاضي غيظاً . . وتساءل
في نفسه كيف يجرو هذا الشخص على الحضور إليه والمثول بين يديه
وهو مثل هكذا؟؟ بل كيف يجرو على أن يسمم جو الحجرة الخيالي
برائحة ما شربه في حانة حقيرة؟؟ . .

وصاح القاضى :

— أسرع بالدخول وقل ما تريد .

كان لابد من سبب خاص لحضور لورنس فطلما ألجأته الحاجة إلى زيارات مثل هذه . . . وطلما نقم القاضى على ما يبيده من تسامح نحو هذا الشقيق . . . أضعف منه أن يجيب مطالبه المادية التى لا تنقطع ؟ أم هى الدماء النبيلة التى ورثها عن أمه وأبيه ، هى التى تدفعه إلى مساعدته ؟ . . . ولكن ما له يقف ثابتاً بجوار الباب ولا يتقدم ؟ ؟ ! لا بد أنه ثمل فلعنة الله على الخمر ولعنة الله أيضاً على لورنس .

قال القاضى فى غضب وحدة :

— لم لا تدخل وتجلس بجوارى ؟ ؟

فتقدم لورنس بخطى ثقله مترددة وهو يعتمد بيده على الحائط وعلى ما يعترضه من رياش . . . ثم وقف بجوار الموقد مطأطئ الرأس أصفر الوجه فقال له القاضى :

— هل أنت مريض أيها الرجل ؟ ؟

فلم يحظ بجواب . . . ورفع لورنس يده إلى جبهته المصفرة الذابلة واقترب متباطئاً وباقترابه اشتدت رائحة الخمر وضوحاً وجلاء . . . فقال القاضى لنفسه .

— إنه ثمل ولقد رآه الخدم على هذه الحال . . . فقبحاً لهذا

الشريد . . . والله لو نطق بكلمة أكثر مما يجب لألقين به إلى الخارج
ولأحطمن رأسه القذر . . .

إذ ذاك انبعثت آهة من فم لورنس . . . آهة صادقة حارة تفيض
من قلب كلیم . . . فاندفع القاضي واقفاً وبدا الغضب على جبينه ثم
صرخ قائلاً :

— ماذا دهاك أيها الرجل؟؟ . . لماذا تقف أبكم هكذا مرتعد
الأوصال كما لو كنت اقترفت جرماً أو قتلت رجلاً؟؟
فانهمرت الدموع غزيرة من عيني لورنس وهمس مجيباً :

— نعم . . لقد قتلت رجلاً . . .
ولم يستطع كيث في بادئ الأمر أن يصدق أخاه فهتف به قائلاً :
— إنك تمل يا هذا . . .

ثم ثارت به الشكوك فاقترب من أخيه وهو يقول في رقة :
— ماذا تقول؟؟!! اقترب واجلس على هذا المقعد . . . ثم أخبرني
عما بك . . .

وقاد أخاه إلى مقعد بجوار الموقد وأجلسه عليه . . . فانبعثت من
فم لورنس آهة أخرى تفيض يأساً وقنوطاً . . .
قال في صوت ذليل :

— ليس هناك أكثر مما قلت . . . إنها الحقيقة يا كيث . . .
فتقدم القاضي خطوة إلى الأمام . . . وحملت عيناه في وجهه

أخيه . . . وفي لحظة واحدة استطاع أن يقرأ الحقيقة القاسية . . .
فهذه العيون التي تمتلئ رعباً وفزعاً . . . وهذا الوجه الأصفر المتغضن . . .
وتلك الدموع التي تتساقط غزيرة على وجنتيه الدابلتين دلائل واضحة
على صدق ما يقول .

ارتفع صوت كيث يقول في غضب :

— إنك تهذى أيها الرجل . .

وكان من الواضح أن كيث ينطق بهذه الكلمات وهو يؤمن بخطأ
ما يقول . . . وإلا ما خفض من صوته وما سار إلى الباب وأحكم
إقفاله خشية أن يتسرب الحديث إلى الخارج . . . أما لورنس فقد ظل
جالساً يتأمل النيران . . . وانعكس ضوء اللهب على وجهه فبدا جميلاً
نبيلاً على الرغم مما يلوح عليه من حزن وفزع .
وقال كيث :

— هيا . . هيا استجمع قواك يا لورنس وخبرني بما حدث لك
وإياك والمبالغة .

— إنها الحقيقة فقد قتلت رجلاً . .

فحمد وجه القاضي وتقلصت عضلاته وقال وهو يصبر بأسنانه في حلق :

— ولماذا أتيت إلى هنا ؟؟ لماذا أتيت تخبرني بذلك ؟؟

فرفع لورنس وجهه الممتقع وأجاب في دهشة :

— ولمن غيرك أذهب يا أخي ؟؟ لقد جئت أسترشد برأيك فيما

يجب أن أفعله . . . فهل أتقدم إلى الشرطة وأعترف بما حدث ؟ ؟
فانقبض قلب كيث . . . إنها الحقيقة إذا . . . لقد ظنه ثملا في
بادئ الأمر . أما الآن وبعد هذا الاعتراف فلا مجال للريب . . . لقد
اقترب لورنس جريمة القتل ما في ذلك من شك .

قال كيث في هدوء :

— خبرني أولاً كيف حدث ذلك ومتى ؟ ؟

— في الليلة الماضية . . .

وكان من مميزات لورنس أن الحقيقة تندفع سريعاً إلى فمه فلا يستطيع
إنكارها مهما حاول في هذا السبيل . . . فهو طعمة سهلة للقضاء ، ولن
يأخذ التحقيق معه أكثر من ساعات معدودات !!

قال كيث :

— كيف ؟ ؟ وأين ؟ ؟ استجمع قواك وخبرني في هدوء بالقصة
من مبدأها إلى منتهاها .

— هكذا بدأت . . . هناك امرأة عرقها منذ شهور مضت . . .

امرأة ؟ ؟ طبعاً امرأة !! هكذا لورنس وهكذا قدر عليه . . .
فالمرأة تقوده دائماً إلى هاوية التهور والسقوط . . . وصر القاضي على
أسنانه غيظاً ، وصرخ في حلق :

— أ كمل . . .

— كان والدها بولانديا يعيش في إنجلترا منذ سنوات مضت . . .

ومات وهى فى السادسة عشرة من عمرها . . . وتركها وحيدة لا عائل لها
ولا نصير . . . فتعرف إليها رجل أمريكى اسمه قالن كان يعيش فى البيت
الذى تسكنه . . . وبادلها الحب ثم تزوجها أو تظاهر بزواجها . . .
ولم يلبث أن هجرها وهى تحمل فى أحشائها طفلاً منه . . . فخرجت تهيم
فى الطرقات بحثاً عن عمل تقطت منه ، فلم تجد ذلك العمل . . . وعضها
الجوع بنابه ومات وليدها ، ثم هامت على وجهها فى الطرقات إلى أن
التقطها رجل انجليزى ، فعاشت بجواره سنتين . . . وأغدق الصديق
عليها شفقتة ورحمته فسعدت معه . . . ولكن قالن عاد فجأة وبحس
عنها فى كل مكان حتى اهتدى إليها واستعادها إلى رفقة . . . وسامها
من العذاب أشكلاً ، فكان يضربها كل يوم حتى تسيل من جسدها
الدماء . . . وكما اختفى فجأة فى المرة الأولى اختفى مرة ثانية ، وتركها
فريسة الجوع والفقر . . . فهوت إلى درك الرذيلة وأصبح جسدها سلعة
يتلقفها الغاؤون . . .

ورفع لورنس وجهه ونظر إلى أخيه وقد ترقرت الدموع فى عينيه
واستطرد قائلاً :

— وعرفتُها فى الطريق كما عرفها غيرى من الرجال . . . فوجدتها
جميلة إلى درجة تأخذ بالقلوب . . . رقيقة كزهرة من أزهار الربيع . . .
أمينة فى حبها صادقة فى إخلاصها . . . آه ، إن قلبى ليتمزق حزناً وشفقة
عليها ، فلقد قاست صعاب الحياة وأهوالها وهى لم تبلغ العشرين بعد .

ذهبت لرؤيتها مساء أمس وبينما نحن نجلس معاً إذا بزوجها قالن
يدخل علينا فجأة . . . فلقد كان الشرير يبحث عنها منذ شهر حتى
اهتدى أخيراً إلى مقرها . . . وعند ما رآني أرغى وأزبد وأرسل من
فيه سيلاً جارفاً من الشتائم القذرة . . . واندفع إليّ وفي يده عصا
غليظة . . . انظر . . .

وأشار لورنس إلى بقعة زرقاء داكنة في جبهته واستطرد :
— فثار غضبي وجن جنوني ، وأطبقت على عنقه بأصابعي ، ولم
أتركه إلا وهو جثة هامدة . . .

وتقلصت عضلات لورنس لذكرى مأساته الهائلة ، فقال له كيث :
— وماذا فعلت بعد ذلك ؟ ؟

— جلست أنا وهي إلى جوار جسده الميت في حيرة وارتباك . . .
وقبل طلوع الفجر حملته فوق كتفي وتسللت خارجاً وألقيت به عند
منعطف الطريق . . .

— وكم يبعد هذا المنعطف عن المنزل ؟ ؟

— خمسين متراً تقريباً . . .

— وهل رآك أحد وأنت تسير به ؟ ؟

— كلا . . .

— متى كان ذلك ؟ ؟

— في الثالثة صباحاً . . .

- وبعد ذلك ؟ ؟
- عدت إليها . . .
- ولم عدت إليها أيها المجنون ؟ ؟
- كانت وحيدة خائفة وهكذا كان شأني ..
- وأين منزلها ؟
- ٤٢ شارع بورو في حي سوهو . . .
- والمنعطف ؟
- شارع جلوف لين . . .
- يا إلهي . . . لقد قرأت خبر الجريمة في جريدة اليوم . . .
- وسار القاضى إلى منضدة قريبة واختطف من فوقها جريدة قلبها
- على عجل حتى أتى الى الفقرة التالية

جريمة جلوف لين

« عثر رجال الشرطة صباح اليوم على جثة ملقاة عند منعطف شارع جلوف لين . والآثار التي وجدت على العنق تدل على أن الموت جنائى . ويبدو أن القتل قد حدث لغرض السرقة فلقد وجدت ملابس القتيل خالية من النقود والأوراق التي قد ترشد إلى شخصيته »

فلم يعد هناك شك إذاً في أن لورنس قد قتل رجلاً . . . لورنس سليل أسرة دارنت العريقة ، فيا للعار !

والتفت كيث إليه وقال :

— إنك قرأت هذا الخبر في الصحف فحملت به . . . أتفهم

ما أقول ؟ لقد حملت به . . . تأوه لورنس وأجاب في حزن :

— لمنت ما حدث كان حلاًماً . . . ليته كان حلاًماً . . .

وأعاد قوله الحتمية القاسية فقال كيث :

— وهل أخذت شيئاً من ملابسه ؟

— كلا . . . اللهم إلا هذه الورقة التي سقطت من ملابسه وهو

يصارعني . . . وأخرج لورنس من جيبيه مظروفاً أبيض عليه طابع أمريكا

الجنوبية ومكتوب عليه ما يأتي :

« باتريك فالن »

أوتيل سيموندر

شارع فارير . لندن »

فصاح كيث :

— ألق به إلى النيران . . .

وألقى كيث بالمظروف إلى الموقد ولكنه أسف على ما فعل فأنحنى

فوق اللهب يلتقطه . . . ولكن النيران التهمته سريعاً . . . وقبل أن

تصل أصابع القاضي إليه أصبح المظروف رماداً تحت اللهب .

صاح مرة أخرى :

— لماذا أتيت إلى هنا ؟ . . . لماذا أتيت تخبرني بذلك ؟ ؟

- لأنك قاض كبير وتعرف أمثال هذه الأمور جيداً . . .
- لم أكن أرغب أن أقضى عليه . . كلا ولم تخطر لي الجريمة على بال . .
- وكل ما في الأمر أنني أحب الفتاة فلما رأيته يهينها في حضرتي وتهجم على جن جنوني ولم أشعر بما حدث بعد ذلك . . .
- وسكت لورنس قليلاً ثم رفع رأسه إلى أخيه وقال :
- ماذا أفعل يا كيث ؟
- ألم يرك أحد مطلقاً ؟ أوافق من ذلك ؟
- كلا . . لم يرنى أحد . . فالطريق كان خالياً والظلمة حالكة . .
- ومتى تركت الفتاة للمرة الثانية ؟
- في الساعة صباحاً . .
- وأين ذهبت بعد ذلك ؟
- إلى منزلي . .
- في شارع فيتزروي ؟
- نعم . .
- هل رآك أحد وأنت داخل إليه ؟
- كلا .
- وماذا فعلت هناك ؟
- جلست حزينة أفكر فيما حدث . .
- ألم تخرج أبداً ؟

- كلا ..
- إذا فأنت لا تعرف ما فعلته الفتاة بعد انصرافك ؟
- كلا ..
- أظن أنها تخونك فتبلغ الشرطة أمرك ؟
- كلا .. لا يمكن أن تفعل ذلك ..
- من يعرف بعلاقتك بها ؟
- لا أحد ..
- لا أحد مطلقاً ؟
- من تظننى أأتمنه على سرى ؟ ؟ !
- وهل رآك أحد وأنت تدخل إلى بيتها مساء أمس ؟
- كلا .. فهى تسكن الطابق الأرضى ولدى مفتاح بابها الذى يمكننى دائماً من التسلل إليها فى غفلة من العيون ..
- أعطنى هذا المفتاح .. والآن هل لديك شئ آخر يفضح علاقتك بها ؟
- كلا ..
- وفى منزلك ؟
- لا شئ ..
- أليس لديك خطابات منها أو صور ؟
- كلا ..

- كن دقيقاً في إجابتك . . .
- ليس لدى شيء ما . . .
- ألم يرك أحد وأنت تعود إليها بعد أن تخلصت من جثة الرجل ؟
- كلا . . .
- ألم يرك أحد وأنت تترك منزلها في الصباح ؟
- لم يرنى أحد . . .
- إنك سعيد الحظ . . . فاجلس أيها الرجل ودعني أفكر قليلاً . . .
- يفكر !! يفكر في الجريمة الشائنة التي تهدد سمعته ومستقبله واسم أسرته العريق !!
- ومع ذلك فما هو يفكر ويفكر دون أن يجد حلاً ، أو يهتدى إلى مخرج واحد من هذا المأزق . . .
- وعاد إلى استجوابه السابق :
- ألم يرها قالن قبل الأمس ؟
- كلا لم يرها ولم يقابلها . . .
- أهى التي أخبرتك بذلك ؟
- نعم . . .
- إذاً كيف عرف مسكنها في حي سوهو ؟
- لست أدري . . .
- هل كنت ثملاً حين وقوع الجريمة ؟

- كلا . . .
- أتقول إنك لم ترغب في قتله؟
- نعم . . . والله شهيد على صدق ما أقول .
- حسنا . . . ولماذا اخترت منعطف الطريق؟
- لأن الظلمة فيه حالكة . . .
- هل جحظت عيناه وازرق وجهه مما يدل على الاختناق؟
- لا تذكري بالله عليك . . .
- تكلم أيها الرجل؟
- نعم . . . لقد تشوه وجهه . . .
- كثيراً؟
- نعم . . .
- أيمكن أن يتعرف عليه أحد أصدقائه وهو مشوه هكذا؟
- لست أدري . . .
- أين كانت فتاتك تعيش معه قبل أن يهجرها للمرة الأخيرة؟
- في حي پمليكو على ما أظن . . .
- ألم يسكننا معاً في حي سوهو أبداً؟
- كلا . . .
- كم مضى عليها وهي تعيش في سوهو؟
- عام تقريباً . . .

- وهى دائماً فى نفس المنزل ؟
- نعم . . .
- أهنأك من يعرف أنها زوجة قالن ؟
- لا أظن ذلك . فلقد أخفت عن أهل الحى أمر زواجها . .
- ما هو عمل زوجها ؟
- كان غالباً يمتهن الإجرام . .
- إذا فلم يكن يستقر به المقام فى بلدة حتى ينتقل إلى غيرها ؟
- نعم . .
- أيعرفه رجال الشرطة ؟
- لست أدرى . . .
- أصغ إلى يالورنس . . اذهب الآن إلى بيتك ولا تتركه أبداً حتى أحضر لرؤيتك فى صباح الغد . . أتعدنى بذلك ؟ . .
- أعدك . .
- أما أنا فلى دعوة للعشاء وسأفكر خلالها . . . فلا تشرب الخمر ولا تتكلم . . . وكل ما أطلبه منك أن تستجمع قواك حتى أحضر إليك . . .
- لا تتأخر فى الحضور يا كيث . . .
- ونظر لورنس إلى شقيقه بوجه باهت وعيون يملؤها الاستعطاف . .
- وعلى الرغم من ثورة القاضى على أخيه واحتقاره لجريمته لم يستطع كيث

إلا أن يمد يده مسلماً ، وأن يقول في رفق :

— تشجع . . .

وما كاد ينصرف لورنس حتى سقط كيث على مقعده الوثير ،

وهو يقول :

— تشجع !! كم أنا في حاجة إلى الشجاعة أكثر منه . .

٢

خرج لورنس من منزل شقيقه وسار في طريقه إلى منزله . . . سار مسرعاً ثم هدأت خطواته قليلاً ولم يلبث أن أسرع مرة أخرى : فكما أن هناك من الرجال من تدفعهم الإرادة والثقة بالنفس إلى عمل واحد لا يتغير ، هناك رجال أيضاً تمتلئ قلوبهم بالضعف والتردد فيصبحون أعبوبة لعواطفهم المتباينة المتضاربة . . . ويدفعهم ما يلتهب في نفوسهم من الحيرة والارتباك إلى أعمال مختلفة في وقت واحد وهكذا كان لورنس ، فضعفه النفساني وحاجته إلى الإرادة والعزيمة قد دفعا به إلى زيارة كيث والافضاء إليه بكل ما اقترفه بالأمس وأزاح اعترافه لأخيه العبء عن صدره فشر براحة نفسانية دفعته إلى أن يسير مسرعاً . . . ولكن لم تمض دقائق معدودة حتى عادت به الذاكرة إلى جريمة الأمس فانقبض صدره وزايلته الراحة التي كان يشعر بها . . . ومادت الأرض تحت قدميه . . . وشعر بحقارة شديدة

في نفسه فتمنى لو كان معه مسدس يلهب رأسه برصاصه ويضع بذلك
حداً لما يعانيه من ألم وشقاء . . . فما فائدة الحياة ؟؟ . . . وأى خير يرجى
له فيها وهو العوبة طيعة في يد طبيعته المتمردة الثائرة ؟؟ . . . لم يتقبل
الإنسان حكم القدر مستسلماً ؟؟ ولم لا يتمتع بسلام الموت وهدوئه ؟؟ . .
وتحت وطأة هذا اليأس الذي تملكه هدأت خطواته بعد سرعته . .

واقترب الآن من المنزل الخطير !! المنزل الذي جلس فيه صباح
اليوم يرتعد مع حبيبته فرقا مما حدث في الليل . . . حيث لاذ بحمى
الحب لعله يبعد عن ذهنه شبح الجريمة الهائلة . . . فهل يذهب الآن
إلى فتاته ؟ . . . كلا . . . فقد وعد كيث ألا يفعل ذلك . . . ولكن لم
وعده وهو يعلم أنها في شوق إلى رؤيته وفي حاجة إلى صحبتته ؟ . . .
وقف غاضباً ثائراً لا يعرف الطريق الذي يسلكه . . . أيتبع قلبه
وعاطفته أم يفي بوعد أخيه ؟؟ . . . والتفت في حلق فرأى صورته
تعكس على زجاج صيدلية يقف بجوارها . . . فيالوجه المروع !! وتذكر
فجأة كلباً صغيراً التقطه من الطريق في العام الماضي . . . كان حيواناً
حقيراً بائساً أضناه الجوع والبرد فسار متهاكاً على أرجله الضعيفة وقد
ارتسم على وجهه البؤس والشقاء . . . كان وجه الكلب البائس
كوجهه المغضن اليأس . . . وعلى الجبينين سطرت الخيبة غصوناً
وتجاعيد . . . ونظر إلى الصيدلية فعاوده الهدوء ، فهناك في البيت زجاجة
صغيرة تضع حداً لكل ما يعانيه من ألم وشقاء . . . وسيشترى من هذه

الصيدلية دواء منوماً ينتقل بفضلها ، هادئاً مرتاحاً ، إلى عالم أفضل من
عالمه بكثير . . .

يقولون إن الانتحار جريمة لا يقرها الله ولا تقرها الشرائع الدنيوية . . .
سخف من القائلين !! فلو أنهم تذوقوا مرارة الحياة أو شربوا كأس
القدر الساخر لعرفوا خطأ ما يدعون . . . ولو أن الجوع عضهم بنابه
فتردوا في هاوية السقوط ، مثلما تردت فتاته ، وباعوا أجسادهم لقاء
طعام حقير لأقاموا للانتحار معبداً يقدمون على مذبحه قربان الشكر
والامتنان . . . وما هي الحياة؟؟ إنها لحظة . . . إنها شهقة . . . إنها
شعلة لا تكاد تلتهب حتى تخمد سريعاً .. فلم كل هذا الحزن من أجلها؟؟
ولم كل هذا الأسى؟؟

وخرج لورنس من الصيدلية مرتاحاً . . . وعاوده الهدوء فارتسمت
على فمه بسمه مرحلة أعادت إلى وجهه جماله السابق . . . وشعر أن
الزجاجة التي يحتضنها في شوق قد بددت ظلمات نفسه فطغت على قلبه
راحة الاستقرار . . . وهكذا أسرع خطواته مرة أخرى . . .

شعر لورنس دارنت برغبة جامحة تدفعه إلى اقتحام الطريق إلى
المنعطف الذي ألقى فيه جثة الرجل . . . وقاوم تلك الرغبة فازدادت
في قلبه اشتعالاً فتقدم في ببطء وانحرف إلى المنعطف المعهود . . . وكان
المكان ساكناً مقفراً إلا من رجل شريد سطر الفقر على جبينه آيات
الجوع والعوز . . . وهو يرتدى ثياباً رثة وقبعة قدرة تخفي تحتها وجهها

بشعاً مخيفاً . . . وكان الطبيعة لم تكثف بما جنته عليه من بشاعة
ودمامة فأمعنت في قسوتها وسلبته عينا وأهدت إليه كتفاً معوجة وقدماء
عرجاء . . . واجتاحت قلب لورنس موجة من العطف والرثاء على هذا
الشريد فهما أخوان في الشقاء وإن اختلفت الأسباب . . .

وقال لورنس للشريد في وداعة :

— إنك لا تبدو سعيداً أيها الأخ؟؟

فاضطربت على شفقي الشريد بسمة حزينة وأجاب :

— إن السعادة لا تعرف الطريق إلينا معشر البائسين . . فنحن
نجاهد في الحياة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . . وكما ازداد جهادنا أعمقت
السعادة في الابتعاد . . ولكن . . أتصدق أنني كنت قساً كبيراً
في يوم من الأيام؟؟!!

فأخرج لورنس قطعة من النقود ودفع بها إليه ولكن الشريد رد
يده قائلاً :

— كلا . . احتفظ بنقودك فلست في حاجة إليها . . وأنا اليوم
أغني منك مالا وأسعد حالاً . . ولكن شكراً لعطفك علىّ فهو أئمن
عندي من المال . .

— صدقت . .

واستطرد الشريد قائلاً :

— ولكنني أعجب لتصاريف القدر فالحياة التي تعتبرها الشرائع

منحة طيبة من الله أقسى وأشد كثيراً من الموت . . إننى أرحب بالموت
وأترقبه فى شوق ولهفة لعله ينقذنى مما أنا فيه من هوان . . واليوم طفح
بى الكيل وفقدت كرامتى واحترامى لنفسى . . ولكن . . أيمكن أن
يحتفظ الجائع باحترام نفسه طويلاً ؟ ؟ . .

كلاً طبعاً . . فالجوع والعري أقوى صلباً وأشدّ عوداً من الكرامة
والكبرياء . .

وسكت الشريد قليلاً ثم التفت إلى لورنس وسأله قائلاً :

— هل سمعت نبأ جريمة الأمس ؟ لقد وقعت هنا وفى نفس
هذا المنعطف . .

وارتجف لورنس المفاجأة فقال فى عجلة :

— أتمنى لك حظاً سعيداً أيها الأخ . .

ثم انصرف مسرعاً . . وشعر وهو يبتعد برغبة شديدة فى الضحك . .
لقد أثارت جريمته حديث الناس جميعاً حتى هذا الشريد !! . .

٣

هناك بعض الرجال خصتهم الطبيعة بحزم وثبات وإرادة من حديد . .
يضحكون فى الصباح وحبل المشنقة يتأرجح انتظاراً لرقابهم فى المساء . .
وأمثال هؤلاء كتب لهم النجاح الدائم وقوة السيطرة على العباد ،

لأن الله حرمهم الخيال والشعور والعاطفة الحارة التي تسمو بالبشر إلى سماء
الإنسانية الحقّة فتجعلهم يكون لمصائب غيرهم ويسمون لسعادتهم ...
كلا . . لقد وهب الله لهم الخيال والشعر والعاطفة ولكنه منحهم معها
عزيمة تسيطر على كل ما عداها وتخمد بقوتها ما قد يتأجج في نفوسهم
من لهيب نبيل . . فتصبح تلك الصفات الثلاث الخالدة أداة طيبة
توجهها الإرادة إلى حيث تشاء .

وكان كيث من هذا النوع من الرجال ومع ذلك أذهله جرم أخيه
حتى عجز عن التفكير . . وعليه الآن أن يذهب إلى حفلة العشاء الكبيرة
التي دعى إليها وأن يضحك بين أصدقائه ويسم ليخفي الحقيقة الرهيبة
عن أعينهم الثاقبة . . فخرج سائراً على قدميه لعل ظلام الليل وبرودته
ينعشان نفسه قليلاً . . فيا لسخرية القدر ؟ ؟ ! . . فبين جنبه سر
يتحرق القضاء شوقاً إلى معرفته . . ودماء القتل تنادى بعقاب من
سفكها ولكن رجل العدالة الأول عاجز عن تلبية النداء !! والأدهى
من ذلك أن جريمة لورنس قد زجت به في مأزق حرج . . فما دام قد
تستر على الجريمة فلا بد أن تؤاخذ العدالة على تستره . . لم لم يترك
لورنس يتصرف كما يشاء ؟ ؟ . . ولكن كيف يتخلى عنه وهما شقيقان
ولدتهم أم واحدة وجرى في عروقهما دم واحد ؟ ؟ كيف يتخلى عن
لورنس الذي حمله رضيعاً وزامله صبيّاً والذي أقسم لأمه ، وهي على
فراش الموت ، أن يحبه ويرعاه ؟ ؟ . . أتركه يقضى ما تبقى له من

العمر حليفاً للسجن يقضى اليوم تلواليوم والعام تلوالعام فى قطع الصخور
وحملها على كتفه الناعم الرقيق حتى تواتيه المنية وقد لا تواتيه إلا بعد
زمن طويل؟؟ . . وأحس كيث أن يداً تهصر قلبه . . كلا . . لن
يقبل هذا بل سينقذ أخاه ويرسل به إلى بلد بعيد . .

ولكن هناك أيضاً الفتاة!! . . يمكن الاعتماد عليها؟؟ أيكشف
التحقيق عن علاقتها بالقتيل فترشد إلى لورنس؟؟ أم تخفى أمر
الجريمة وتقفل فيها دون الإفضاء بها؟؟ كلا . . كلا . . فهذا أمل
زائف وما هى إلا فتاة ساقطة لا قلب لها ولا ضمير . . إنها كغيرها
من بنات الهوى متى لوح لها القضاء بالنقود انفتحت مغاليق
قلبها ، وسالت الحقيقة من فيها سريرة متدفقة ، . . ولكن . . لنفرض
أنها تحب لورنس . . ألا يمنعها حبها من خيانتها؟؟ يجب أن يرى
ويتأكد بنفسه . .

هكذا سار كيث يفكر وهو مقطب الجبين . . ونظر حوله فتذكر
المنعطف . . ترى أين يوجد هذا المنعطف؟؟ لا يمكن أن يكون بعيداً
عن المكان الذى يسير فيه . . تلفت حوله باحثاً عن يرشده فرأى شرطياً
يقف على مقربة منه . . فتقدم منه . . ولكنه لم يقو على التحدث معه
فمر به فى سكoon . . وانحرف إلى اليسار . . هاهو شارع بورو وهاهو
المنزل الذى وقعت فيه الجريمة!! ها هى نوافذ الطابق الأرضى الذى
تسكنه الفتاة . . ترى أى اتجاه سار فيه لورنس وهو يحمل جثة القتيل؟؟

عن بعد خمسين متراً من المنزل ، إذا فهو هناك . . . نعم نعم . . . ها هو
المنعطف المظلم الرهيب . . . وتقدم إليه في ببطء . . . وعند ما وصل إليه
وقف يتفحص المكان . . . وإذا ذاك سمع صوتاً يتحدث إليه قائلاً :

— نعم . هنا ياسيدى ، هنا بالضبط وقعت الجريمة . . .

وارتجف القاضى رعباً إذ لم يكن يتوقع أن أحداً يراقبه . . . وكان
المتحدث إليه صديقاً يبيع الصحف ويحمل تحت إبطه جريدة المساء . . .
— هنا ياسيدى وجدوا جثة القتيل ولكنهم لم يهتدوا إلى
القاتل بعد . . .

قال ذلك وهو يدفع إلى كيث بجريدة تناولها القاضى ونفحه الثمن
مضاعفاً . . . وتصفح الجريدة فى عجل تحت ضوء مصباح الطريق فوجد
الفقرة التالية :

جريمة جلوث لين

« ما زال الغموض يكتنف الجريمة . ولم يكشف التحقيق المستمر
عن شخصية القتيل . . . والمرجح أنه أجنبي عن البلاد . . . »
وحين رفع كيث رأسه كان الصبي قد اختفى وابتلعه الظلام . . .
ورأى الشرطى مقبلاً نحوه على مهل فازدادت ضربات قلبه . . . وبعد
تردد قليل لازم مكانه ولم ينتقل منه . . . وتقدم منه الشرطى فى

غضب وقحة . . ولكن ما كاد يرى الرداء الرسمي والبنيقة البيضاء
الأنيقة حتى عاد الهدوء والاحترام إلى وجهه . . .
فسأله كيث قائلاً :

— أهذا مكان الجريمة ؟

— نعم يا سيدى . .

— لقد قرأت فى الصحف أن الشرطة لم تهتد إلى القاتل بعد . .

— إننا لا نعتمد كثيراً على ما تقوله الصحف . . ولكنى أعتقد

أن التحقيق لم يتقدم كثيراً . . .

— إن المنعطف مظلم جداً . .

— نعم ولذلك اتخذه البأسون مأوى بالليل . . .

— ألم يجدوا مع القتل ما يرشد إليه ؟

— لم يجدوا شيئاً مطلقاً فقد كان خالى الوفاض . .

وقفل كيث راجعاً من حيث أتى وهو يقول :

— مساء الخير . .

— مساء الخير يا سيدى . . مساء الخير . .

وعاد كيث إلى شارع بورو والتفت وهو يسير فرأى الشرطى ما زال
واقفاً فى مكانه لم لم يجدوا شيئاً فى ملابس القتل ؟ . .
أهو لورنس الذى جرده مما يحمل حتى يتعذر على الشرطة الاهتداء
إليه ؟ . . أم هو لص سطا على الجثة بعد ذلك ؟ . . إن الأمور تسير

في مجراها الحسن لو أن الفتاة كانت عند حسن ظنه بها . . . فيجب
 أن يقابلها حالا ليعرف أى نوع من النساء هذه الفتاة . . . فنبهة
 لورنس تتوقف على مقدرتها على الصمت ورغبتها في السكتمان . . .
 واتجه إلى منزلها بخطى بطيئة . . . ها هو الرقم الذى ذكره لورنس هذا
 الصباح . . . لا خوف من الدخول فالطريق مظلم والمارة قليلون . . .
 سيطرق بابها الآن ويتحدث معها عن الجريمة الأليمة . . . ولكنه لن
 يخبرها باسمه ولا بقرباته لحبيبها . . . إنها مهمة شاقة ولكنه سيعرف
 كل شئ بقليل من الحكمة والحزم . . . وطرق الباب فساد السكون
 وطرقه مرة أخرى فلم يجبه أحد . . . وارتعدت أوصاله خوفاً من أن
 يراه الناس وهو يقف على باب دارها . . . فطرق مرة ثالثة فلم يحظ
 بجواب أيضاً . . . وأخرج المفتاح الذى أخذه من أخيه وفتح الباب
 ودخل . . . وسمع صوتاً رقيقاً خائفاً يقول من الحجرة الداخلية :
 — إذا فهو أنت ؟؟ ولم طرق الباب هكذا ولديك المفتاح ؟؟ . .
 لقد أزعجتني . . . تقدم يا عزيزى وأشعل النور . . .
 وقف كيث متردداً فى الظلام . . . فأحس بأقدام المرأة تقترب منه . .
 ثم طوقت عنقه بذراعيها الجميلتين . . . والتصق جسدها اللدن بجسده
 الحشن . . . ولم تلبث أن تداركت خطأها فارتدت إلى الخلف
 مذعورة . . .

صاحت : — من أنت ؟؟

فأجابها ببرود :

— صديق للورنس فلا تنزعجى

وساد السكون بينهما ولم يعكره إلا صوت دقات الساعة وهو ينبعث
من الداخل ... وساركيت خابطاً في الظلام يبحث عن النور حتى
وجده أخيراً ... فانبعث الضوء في الحجرة .. ورأى الفتاة في ركن
بعيد تلتصق بالحائط وهي خائفة مذعورة ... وقفت ترتجف وقد فغرت
فاها رعباً وتهذلت خصلات شعرها فوق كتفيها العاجيتين ... وكانت
في وقفها تشبه تمثالاً من المرمر الجميل ... تمثالاً لامرأة ذاق مرارة
الحياة فعرفت ما هو الصدق وما هو الوفاء ... وأخذ كيث بما ارتسم
على وجهها من آيات النبل والجل .. فقال في دعة :

لا تنزعجى فأنا صديق للورنس وما أتيت اليوم إلا لخيره ... فهل
لى أن أجلس قليلاً وأتحدث إليك ؟

لم تجبه بل ظلت تحملق فيه بعينيها الواسعتين ... فأخرج مفتاح
منزلها من جيبه وقال وهو يلوح به :

— لو لم أكن صديقاً له لما ائتمنى على هذا المفتاح ...

فلم تتحرك من مكانها ولم تجبه ..
استطرد قائلاً :

— ألا تجلسين قليلاً ؟ .. أنا آسف لأننى أزعجتك إلى هذه
الدرجة ... وسألتة هامسة :

— من أنت ؟

وعلى الرغم من حيطته السابقة وإصراره على كتمان اسمه قال لها :

— شقيق لورنس

فتنهدت ارتياحاً كأن عبئاً ثقيلاً قد زال عن صدرها .. وتقدمت
منه وجلست بجواره وهي تخفي عنقها العاري بثيابها ... وبدت كالطفل
الساذج وهي تطرق برأسها الجميل في خوف ووجل ...
قال لها :

— آسف لزيارتك في وقت متأخر من الليل .. ولكنه أخبرني
اليوم بما حدث فلم أجد بداً من الحضور .. إنه حدث مروع ومصيبة
كبيرة ...

فأجابت هامسة :

— نعم .. فظيع ... فظيع ..

وفجأة اجتاحت قلب كيث موجة من الخوف ... لعل الرجل سقط
ميتاً حيث يجلس هو الآن فأطرق برأسه ... وكأنها فهمت ما يجول
برأسه فقالت :

— نعم .. هنا بالضبط .. إني أتخيله الآن وهو يسقط جثة هامدة ..
وكان في صوتها يأس وقنوط حرك مشاعر القاضي الكبير ...
ولكن لم يشفق عليها وهي المرأة الملوثة التي نكبت أسرته بكارثة
كبيرة؟؟؟!! قال :

— إنك صغيرة السن !!

— إننى فى العشرين من عمرى .

— وهل تحبين أخى ؟

— إبنى أموت من أجله إذا اقتضى الحال . .

إنها تقول الصدق . . . فنبرات صوتها الرخيم وعيناها الواسعتان
المتألفتان تشهدان على وفائها وإخلاصها . ودهش كيث من وجهها
الملائكى الساذج وتعجب لم لم تسطر الرذيلة عليه آياتها المعهودة ؟ ؟ لم
لم تطبعها بطابع زميلاتها من النساء ؟ ؟ . . أهو الحب الذى طهر وجهها
وروحها ؟ ؟ أم هو الرعب الذى ألبسها ثوب الملائكة الأبرار ؟ ؟ . .
وقال بعد تردد قليل :

— لقد أتيت لأنقذه ، فأجيبني بصدق وإخلاص . .

— سأذكر كل شىء . .

— هل كان زوجك رجلاً شريراً ؟ ؟

— إلى أبعد حدود الشر .

— وهل غاب عنك طويلاً قبل الحادثة المشؤومة ؟

— لقد هجرني منذ ثمانية عشر شهراً . .

— وأين كنت تعيشين معه قبل ذلك ؟

— فى حي بمبليكو . .

— هل يعرف أحد هنا أنك زوجة قالن ؟

- كلا .. فمنذ أن ماتت ابنتي الصغيرة وأنا أتخبط في حياتي ،
ولذا أتيت إلى هذا الحى ، وأخفيت أمر زواجى عن الجميع ..
- ولكن إذا توصلت الشرطة إلى معرفة شخصيته فسيهددون
إلى زوجه بطبيعة الحال ..
- كلا .. لا أظن ذلك ، فقد أخفى أمر زواجه بى لأنه احترف
مهنة تضليل النساء والزواج بهن .. وله زوجات كثيرات فى كل حى
وفى كل مكان ..
- أتعرفه الشرطة كما تعرف غيره من المجرمين ؟
- لا أظن ذلك ..
- وما هو الاسم الذى يعرفك به أهل الحى ؟
- فانداليفينسكا ..
- أهو اسمك الحقيقى ؟
- فانداليفينسكا هو اسمى الأول ، أما ليفينسكا فمن اختراعى ..
- هل قابل لورنس زوجك قبل هذه المرة ؟
- كلا ..
- وهل سبق أن حدثته عن القسوة ، والشدة التى عاملك
زوجك بها ؟
- نعم .. ولكن قالن هو الذى بدأ بالاعتداء عليه .
- هذا صحيح ، وقد رأيت كدمة داكنة على جبينه .. ولكن

هل رأى أحد لورنس وهو آت إليك أمس ؟

— لست أدري . .

— ومن رآه وهو يخرج حاملا الجثة ؟

— كلا لم يره أحد . . فقد كنت أرقبه من النافذة ، وهو يسير

بها ، وكان الطريق إذ ذاك خالياً .

— وفي عودته ؟

— لم يره أحد . .

— وفي خروجه من البيت هذا الصباح ؟

— لا أظن أنه قابل أحداً . .

— ألدبك خادم ؟

— كلا . . بل هناك امرأة تأتي لتنظيف المنزل كل يوم في الساعة

التاسعة صباحا وتنصرف في العاشرة . .

— وهل تعرف لورنس ؟

— كلا . .

— وأصدقاؤك وجيرانك ؟

— ليس هناك من يعرفه . . وليس لى أصدقاء ، فأنا أعيش في

هدوء تام منذ عرفت لورنس . .

— وهل عرفته منذ زمن طويل ؟

— منذ خمسة أشهر . .

— وهل خرجت اليوم من منزلك ؟
— كلا . . .

— إذاً ماذا فعلت طيلة اليوم ؟
— كنت أبكى . . .

وسكنت قليلاً ثم استطردت :

— إنه في خطر عظيم من أجل فما العمل ؟

وأطرق برأسه ولم يجب . . ثم قال :

— لنفرض أن الشرطة عرفت صلتك بالقتيل فهل تخفين أمر

لورنس ؟

فالتفت عيناها وأشارت إلى الموقد غاضبة وقالت :

— أنظر . لقد أحرقت كل ما قد يرشد إلى صلته بي حتى الصورة

التي هي أثنى ما أمتلك . . . فكيف أشي به بعد ذلك ؟

— حسناً . . . لدى سؤال آخر . . . أيعرفك رجال الشرطة كما

يعرفون . . . كما يعرفون زميلاتك ؟

فاحمر وجهها وقالت في ذلة :

— كلا . . .

وأسف القاضي على ما قال فاستطرده :

— آسف جداً لجرح شعورك ولكن لم يكن لي بد من السؤال . . .

والآن أتعرفين مسكن أخى ؟

— نعم . . .

— إذا فلا تذهبي لرؤيته ولا تدعيه يأتي إليك . . .

وارتجفت شفتها واغرورت عينها بالدموع وقالت :

— سأفعل كل ما تأمر به . . سأكون حريصة عليه حرصى على

نفسى فلا تأخذه منى . . . ولا تحرمنى رؤيته فى بعض الأوقات . . .

فليس لى أنيس فى الحياة سواه . . .

وتناولت يده فى استعطاف .. وانحنت تقبلها وتبللها بدموعها السخينة ..

سأراه أولاً ثم أفكر فى أمر حضوره إليك . . .

— ولكنك ستشفق على . . . أليس كذلك ؟

وانحنت على يده تقبلها مرة أخرى فبعثت شفتها الرقيقتان رعدة فى

جسده . . . رعدة هى مزيج من الخوف والعاطفة الجنسية الشديدة . . .

وسحب يده فى عجلة . . . فوقفت أمامه مطأطئة الرأس ثم رفعت وجهها

إليه وقد اتسعت عينها رعباً ودهشة وقالت هامسة :

— أنصت . . . هناك من يطرق الباب !!

ثم ابتعدت عنه وأطفأت النور فساد الظلام الحجرة . . . وارتفع

صوت الطرقات يشق حجب السكون فارتعدت الفتاة وارتعد كيث

أيضاً . . . ترى من يطرق بابها الآن ؟ ليس لورنس بطبيعة الحال !!

وتعددت الطرقات فاقتربت منه هامسة وقالت :

— ربما كان لورنس . . . فلا بد إذاً من أن أفتح له . . .

واختفى كيث خلف ستار صغير وخرجت هى قائلة :

— من هناك ؟

فارتفع صوت الشرطى الذى قابل كيث عند منعطف
الطريق مجيباً :

— لا شيء يا آنسة . . . فقط رأيت بابك مفتوحاً فأغلقيه لأن
الساعة قد جاوزت الثامنة . . .

— شكراً لك . . .

وعاد الشرطى من حيث أتى . . . وابتعدت خطواته قليلاً قليلاً حتى
ساد السكون مرة أخرى . . . وثار غضب القاضى . . . سحقاً لهؤلاء
النساء فهن سواء فى الكذب والرياء . . .

صرخ فى وجهها قائلاً :

— ألم تقولى الآن إن الشرطة لا تعرفك ؟ .

أجابت فى حزن :

— لم أكن أعرف ذلك فلقد مضى وقت طويل وأنا قابعة فى
عقر دارى لا أخرج منه . . .

فازدادت ثورة كيث . . . يالاعار ! فلورنس سليل أكرم الأسرات
وأعرقها يجب امرأة من الطريق ويصبح ملك يمينها روحاً وجسداً
ومستقبلاً ! !

وأرسل يده إلى النور وأطلقه فى الحجرة . . . وما كاد يرى وجهها

الجميل حتى هدأت نفسه سريعاً فلعن الظلام الذى يكسب الإنسان
خشونة وقسوة . . .

وقال فى وداعة :

— سأذهب الآن، ولكن تذكرى دائماً أن سلامته بين يديك فلا
تعرضيه للأخطار بالذهاب إليه أو بدعوتك له . . .
ثم انصرف مسرعاً . . .

وعندما وصل إلى الباب وقف قليلاً خشية أن يقابل الشرطى . . .
ومرت الدقائق كالدهور . . . ولما لم يسمع صوتاً خرج إلى الطريق وما
كاد يسير بضع خطوات حتى سمع صوتاً يقول له فى الظلام :
— مساء الخير يا سيدى . . .

وهناك فى ظل الباب وقف الشرطى يحميه . . . لقد رآه إذاً وهو
يخرج فما العمل ؟ !! وفى خوف ممتزج بالغضب أجاب :
— مساء سعيد . . .

وساركيت دارنت كاسف البال حزيناً . . . ولكن هواء الليل
الليل أكسبه هدوءاً ونشاطاً . . . فى الواقع ليس هناك خطر كبير
كما كان يعتقد . . . لقد أحسن صنعاً بزيارة الفتاة . . . آه الفتاة !!
إنها مخلوقة حسنة وعيناها الواسعتان الصافيتان تنطقان بما يكنه قلبها
من إخلاص ومحبة لأخيه . . . إذاً فلا خوف عليه منها . . . ولكن
على الرغم من ذلك يجب أن يرحل لورنس حالاً إلى بلد بعيد . . .

ومع أن هذا الحل مقبول في يسره وسلامته ظل القاضي قلقاً ...
ولم يستطع أن يبعد عن رأسه صورة الفتاة التي خرج من عندها الآن ...
وظلت مخيلته عامرة بذكرى الحجرة الحقيرة التي تسكنها ... إنه ما زال
يستنشق عبير الحب القوي الجارف الذي ينتشر في جوها ... إنه ما زال
يرى العاطفة الحبيسة بين الجدران الصفراء والرياش الأخضر الباهت ...
ثم الفتاة بشعرها الذهبي وعيونها الواسعة التي امتلأت بالرعب أولاً ثم
بالوداعة والاخلاص ثم بالاستجداء والاستعطاف ... يا لوجهها الملائكي!
يا للوجه الذي ينطق بأصدق آيات الإخلاص والحب والجمال ...
لم يكن من السهل على رجل مثل كيث أن ينسى قائدا الصغيرة أو ينسى
جسدها اللدن وذراعيها وهما تطوقان عنقه في الظلام !! ؟ !

وتوقف عن السير فجأة ... ما هذه الأفكار العجيبة التي تعصف
برأسه ؟ ؟ ما هذه الخزعبلات التي تمر أمام عينيه مختلطة بجريمة أخيه
وصورة الفتاة الساقطة ذات الوجه الملائكي !! ؟ !

واقترب الآن من منزله ... وعلى بعد خطوات قليلة منه أحس
بقدم ثقيلة تتبعه . . . والتفت فرأى شرطياً يسير على مقربة منه ...
أهو الشرطي الذي قابله هناك ؟ ونظر الى وجهه فاحصاً فخال الظلام
دون معرفة الحقيقة ... فلعن في نفسه رجال الشرطة لأنهم يتشابهون
جميعاً في الزى والشكل ... ولكن لم يتبعه وفي أي شيء يشتبه ؟
وصل إلى البيت وصعد السلم ... ما كاد يصل إلى حجراته حتى

اشتدت مخاوفه فسار إلى النافذة وأزاح الستار قليلاً واسترق النظر إلى الطريق . . . ورأى الشرطى يواصل سيره غير آبه للمنزل أو لمن فيه . . . فتنفس كيث الصعداء وارتمى على فراشه وأغمض عينيه .

٤

استيقظ القاضى فى الساعة الخامسة من الصباح مرحاً مرتاحاً كهادته . . . ولكن ما كاد يدخل حجرة المكتبة حتى استعاد إلى ذهنه ذكرى ما حدث بالأمس . . . فالشموع مطفاة والنيران مشتعلة فى الموقد وقدح القهوة ينتظره على المائدة . . . كان كل شىء كالأمس حين دخل لورنس وأفضى إليه بالحادث المحزن . . . وقام إلى مكتبه ينظر القضايا المكدسة أمامه لعل العمل يملأ فراغ نفسه الحائرة . . . وعندما دقت الساعة دقاتها الثمان قام يبغي زيارة أخيه . . . يجب أن يسرع لأن لورنس فى انتظاره ولكن عليه أن يمر على المصرف أيضاً ليحضر بعض النقود استعداداً لرحيل أخيه على الباخرة التى تطلع غداً . . . وفى طريقه إلى الخارج تناول جريدة الصباح وقلبها فى عجلة فقرأ ما يأتى :

جريمة سوهو

« توصلت الشرطة أخيراً إلى معرفة شخصية الرجل الذى وجد قتيلاً عند منعطف جلوف لين . . . وقد قبض على بعض الأشخاص رهن التحقيق . . . »

وامتلاً قلب كيث رعباً .. فهل كان أخوه بين من قبض عليهم؟؟ لو أن ذلك حدث لوقع القاضى فى مشكلة عويصة . . . سيأخذونه بجريمة أخيه لتستره عليه . . . وسيشهد الشرطى برؤيته عند المنعطف ثم فى منزل الفتاة . . . ودارت به الأرض . . . ولم يجد مخرجاً مما هو فيه . . . ولكن ما فائدة الندم والحزن؟؟ لا بد من العمل السريع . . . لا بد من أن يجابه الواقع .

وهكذا قامت إرادته الحديدية تؤنسه وتهبه قوة وشدة فجمع أوراقه على مهل واستقل سيارة إلى شارع فيتزروى .
ووقف القاضى أمام خادم أخيه وقد ارتسمت على وجهه الشدة والحزم وسأله :

— هل سيدك فى الداخل ؟

— نعم . . . ولكنه لم يستيقظ بعد . . .

— حسناً . . . سأدخل إليه وأوقظه بنفسى . . .

وفى طريقه إلى حجرة لورنس لاحت ابتسامة صغيرة على شفتى

القاضى . . . حسناً فعلت الشرطة بالقبض على بعض الأشخاص . .
سيشغلهم التحقيق وقتاً يستطيع لورنس خلاله أن يسافر إلى بلد بعيد . .
ويجب أن ترحل الفتاة أيضاً . . .

دخل الآن إلى حجرة النوم فرأى أخاه يرقد على الفراش متيقظاً
وقد عقد ذراعيه خلف رأسه . . . وكان يحدق إلى الفضاء وبين شفتيه
لفافة من التبغ وإلى جواره إناء مليء بأعقاب السجائر التى استهلكها
طوال الليل . . . وجهه مصفر وعيناه محمرتان من أثر السهاد . . . كان
أشبه بهيكل رجل محطم وهو فى مستقبل الحياة . . .

ونظر إليه لورنس من خلال الدخان المتصاعد من فمه وقال فى هدوء :
— حسناً . . ما هو الحكم الذى أعدته لى أيها الأخ ؟ . أهو

النفى المؤبد أم السجن مدى الحياة ؟ ؟ . .

وأثار تهكمه غضب القاضى . . ولكن لم الغضب ؟ . . أكان ينتظر
من لورنس غير ذلك ؟ ؟ . كلا طبعاً ! ! فهكذا كان لورنس بالأمس
خاضعاً ذليلاً واليوم أصبح ساخراً متهمكاً ! !

قال كيث فى ضيق :

— إنك تهكم أليس كذلك ؟

— لا بد من التهكم قليلاً وإلا فقدنا الرغبة فى الحياة . .

استسلام ! ! يا للنفوس الوضيعة التى تؤمن به ! !

قال كيث :

— لقد قابلت الفتاة . . .

— أنت ؟ ؟

— نعم . مساء الأمس . . وأظن أنها صادقة في إخلاصها وولائها
فلا مجال للخوف منها .

وضحك لورنس مجيئاً :

— ألم أخبرك بذلك ؟

— نعم . ولكن كان من الواجب على أن أقابلها بنفسى فذهبت
إليها . . . والآن يجب أن ترحل حالا إلى بلد بعيد . . . وستلحق بك
الفتاة على الباخرة التالية . . . هل معك نقود ؟

— كلا . . .

— سأدفع نفقات سفرك وأقرضك مرتب عام مقدماً . . . ولكن
على شريطة أن تتكتم أمر الرحيل ، وأن تعرفنى بكل حركاتك
وانتقالاتك . . .

وتهد لورنس حزناً وقال :

— شكراً لك يا كيث . . . لقد كنت دائماً طيباً معى على الرغم
من أننى لا أستحق شيئاً من هذا . . . وإنى لأتساءل فى بعض الأوقات
عما يدعوك إلى العطف على رجل مثلى . . .

فأجاب الآخر فى خشونة :

— وإنى أعجب مثلك لم أعطف عليك . . . والآن هناك باخرة

ترحل إلى الأرجنتين في صباح الغد فيجب أن تسافر عليها دون تردد . . . أنت سعيد الحظ أيها الرجل ، فلقد قبضت الشرطة على بعض الناس وسيشغلهم التحقيق وقتاً طويلاً . . .

— ما ذا تقول ؟؟ ! . . .

ثم رفع لورنس يده إلى جبينه وتهالك على الفراش مرة أخرى وقال :

— لم يخطر ببالي أنهم قد يفعلون ذلك ! !

وغضب القاضي وأجاب في خشونة :

— ولم تفزع هكذا وأنت تعلم أن البريء لا خطر عليه ؟ . وفي

كل قضية يقبض على الأبرياء أولاً ثم يفرج عنهم . . . وكل ما في الأمر أن مثل هذا القبض سيمهد لك وقتاً كافياً للرحيل . . .

وبقى لورنس صامتاً وارتسمت الحيرة على جبينه فاستطرد كيث :

— أضغ إلىّ فالمسألة أخطر كثيراً من أن تعصف بها عواطف

سخيفة ، فاستعد للرحيل حالا ، وارك ما عداه إلىّ . . . وسأفكر لك

في الأمر كما تريد وتشتهى . . . وسأحجز لك مكاناً على الباخرة ،

وأعد لك ما تحتاج إليه من مال . وهالك الآن بعض النقود

للضروريات . . .

وسكت قليلاً وهو يتأمل أخاه ، ثم قال :

— يجب أن تفكر في . . . فلو أنهم كشفوا جريمتك لنزل بي العار

لتستري عليك . . . أتفهم ما أقول ؟ ؟

فأجاب لورنس في هدوء :

— نعم ، إننى أفهم جيداً ما تقول ...

وخرج القاضى إلى المصرف كما وعد ... وتسلم أربعمائة جنيه
أودعها حافظته فى حرص ... ثم اتجه إلى مكتب البواخر ، واحتجز
مكاناً لأخيه ... والآن قد تم كل شئ ... وحين يسافر لورنس
سيذهب كيث إلى الشرطة ويفرج عن المتهمين الأبرياء ... ولكن ..
كيف يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يثير حوله الشبهات ؟
مستحيل ... إذاً فلا موجب لذهابه وستظهر براءتهم عن قريب ...
ولم يبد كيث نشاطاً فى عمله مثل ما أبدى اليوم ، .. فقد أكبَّ
على القضايا بشغف وشدة ... وحكم فيها بما عرف عنه من حزم
وصرامة ... وحين انتهى ألقى بثوب القضاء جانباً وخرج مسرعاً
إلى منزل أخيه

٥

بقى لورنس فى فراشه يفكر فيما قاله أخوه :

— البريء لا خطر عليه ...

لقد قال كيث ذلك وكيث لا يعرف الكذب ... فهل يعتمد
على قوله ؟ .. وهل يرحل إلى الأرجنتين وفى انجلترا رجل يرفرف
الموت فوق رأسه لجرمة لم يرتكبها ؟ ؟

لقد ظل طيلة ليلته الماضية ساهراً يفكر فيما يجب عليه أن يفعل حتى
استقر رأيه أخيراً على أن يواجه الواقع في شجاعة وإيمان ولو طلب إليه كيث
أن يسلم نفسه للشرطة لما تردد دقيقة واحدة ولا رتاحت بذلك نفسه
المعذبة . . . ولكن على الرغم من ذلك غمره السرور حين طلب إليه
أخوه أن يرحل إلى أمريكا . . . أمريكا بلد الهدوء والأحلام !! ومن
لا يسعد بالذهاب إليها ويدها مخضبتان بدماء قتيل ؟؟؟ !! هناك وطن
جديد وشمس جديدة ونسيم جديد . . . هناك الأمل في الحياة والأمل
في النسيان . . . وهناك العدالة الحقة . . . ألم تكن هي العدالة التي
دفعته إلى قتل تلك الحشرة القذرة وإراحة المجتمع من شرورها ؟؟؟ . . .
ولكن ما ذا يكون مصير الرجل الذي قبض عليه ؟؟ سيحققون معه
اليوم . . . إذاً فليذهب إلى قاعة الجلسة ويحضر التحقيق . . . يا لها
من فكاهة قاسية أن يرى المجرم غيره يتأرجح على حبل المشنقة ؟!
فارتدى ثيابه في عجلة وسار إلى دار المحكمة . . . وهناك أخذ يذرع
المكان جيئة وذهاباً قبل أن يجد من نفسه قدرة على الدخول . . .
ودخل أخيراً فوجد القاعة مكتظة بالحاضرين .

وجلس القاضي على منصة العدالة ينظر القضايا على اختلافها بينما
لورنس يرقبه بقلب واجف وصبر يوشك أن ينقضى . . . وجاءت قضية
جلوف لين فدخل جنديان يسوقان أمامهما رجلاً مسكيناً . . . إنه الشريد
المشوه الذي قابله عند المنعطف يوم ذهب يتفقد المكان !! إنه الرجل

المحطم البأس وقد زادته التهمة تحطياً وبؤساً... وكان المتهم يسير
خافض الرأس مرتعد الأوصال كما يسير الأرنب الجريح بين الكلاب
الصائدة...

ونظر القاضى فى الوقائع المسجلة أمامه ، وسمع شهادة الشهود . .
فقد ذكر صاحب الخان الذى نزل به قالن ما يعرفه عن شخصية القتيل
وعما كان يرتديه فى يوم مقتله ، وخاصة الخاتم الثعبانى الذهبى الذى
التمع فى أصبعه على مائدة العشاء قبل خروجه بقليل . . وشهد الشرطى
بأن الخاتم نفسه وجد فى حوزة الشريد ، وهو يتسكع عند المنعطف . .
كما شهد شرطى آخر بأنه حين قبض على المتهم صاح هذا قائلاً :

- نعم لقد سرقت الخاتم ولكن الرجل كان مقتولاً إذ ذاك . .
نعم لقد سرقته لفقرى وحاجتى . . لم أقتله . . ولم آخذ غير ذلك الخاتم
لأن جيو به كانت خالية . . لم أقتله ولم أمسسه بيدي والله شهيد على
صدق ما أقول . .

وانتهى التحقيق بذلك . . . وانسحب الشريد من القاعة إلى
السجن ، وهو يسير بكتفه المعوجة وقدمه العرجاء . .

وبقى لورنس فى مكانه ، وقد تساقط العرق البارد من جبينه . .
إذاً فقد سطا لص على الجثة قبل أن يصل الشريد إليها . . وأمثال قالن
لا يسرون فى المدينة ليلاً إلا وجيو بهم عامرة بالنقود . . ولو أن الشريد
وجد النقود لما أخذ الخاتم الحقيق . .

وخرج زائع البصر . . . وشعر برغبة شديدة إلى الشراب ، فأقذاح
الخمر وحدها تهديء نفسه الثائرة . . . ولكن ها هو الحنين يعاوده إلى
فتاته فلم لا يذهب إليها ؟؟ . . . كلا . . . فقد وعد كيث ألا يفعل ذلك . .
ولكن كيف يفي بوعده ، وهذه الفتاة هي كل ما تبقى له من أمل في
الحياة ؟؟ ! ! . . . إن الموت لأعذب إلى نفسه من هجرها والبعد
عنها . . . لقد ظن أن الجريمة قد تفرق بينهما ، ولكن ها هي الحنة
تقربهما كثيراً وتربطهما برباطها الخالد . . .

هكذا تغلب حبه الجارف على رغبته الجامحة في الشراب ، فأسرع
الخطى إلى حيث تسكن حبيبته . . . وما كاد يصل إلى بيتها حتى فتح
الباب دون أن يطرقة . . .

وتلقته الفتاة بين ذراعيها . . . ورأى بجوار النافذة المقعد الذي
جلست عليه فأنذا طوال اليوم ترقب الطريق وتتفقد المارين لعل لورنس
يكون بينهم . . . فعلى الرغم مما قاله لها كيث من ضرورة ابتعادها كان
قلبها يهتف بقرب قدومه . . .

والآن وقد حضر فلا بد من أن توفر له سبل الراحة . . . وأسرعت
إلى الموقد وأشعلت النيران فيه . . . ثم إلى خزانة صغيرة فأخرجت منها
الطعام الذي أعدته له . . . وكانت تجرى هنا وهناك كعبدة مخلص أو
كامرأة كبلها الحب بقيوده القوية ومع ذلك فهي لا تحس بتلك القيود
مع ثقلها وقسوتها . . .

وجلس لورنس يرقبها وهي تروح وتحبىء من أجله ... وأحس بفرح
وسرور ... فهنا القلب الذى ينبض بحبه دون قلوب العالم أجمع ...
هنا راحته وهناؤه وهنا نعيمه وسعادته ... فأقر ألا يفسد هذا النعيم
بالتحدث عن الجريمة ... ولن يخبرها كذلك بالقبض على الشريد
ولكن ما كادت تجلس عند قدميه ترقبه بعينها الواسعتين وهو
يأكل حتى اندفع الحديث إلى فمه فقال :

— لقد قبض على رجل برىء ..

فارتسم الرعب فى عينيه .. ولكنها تغلبت سريعا عليه .. وأحاطت
عنقه بذراعيها وطبعت قبلة حارة على جبينه الذابل ... وكأنها كانت
تناديه فى صمت أن يضع حبه لها قبل الواجب والضمير ...
فمن كان يصدق أن لورنس دارنت بحاضره ومستقبله وباسم
أسرته العريق يقف نفسه على حب هذه الفتاة التى تخاطفها الرجال
من قبل ؟؟ ..

فشعور الرجال يختلف نحو المرأة الساقطة : فبعضهم إذا ما أحبها
تشور فى نفسه نخوة الشهامة فيغدق عليها صنوف الإعزاز والإكرام
ليعوض لها ما فقدته من راحة ونعيم ... وبعضهم يصبح قلبه طعمة
سائغة للغيرة العمياء التى تقطع من الحب وتفسد جماله ... والآخرون
يصبحون نهبا للشعورين معا ... ومن هؤلاء كان لورنس ... فما كاد
يأخذها بين ذراعيه حتى نسى العالم أجمع ما عدا كنزه الثمين ... نسى

كل شيء ما عدا حقه الشديد على الرجل الذي اقتطف زهرتها
وارتشف رحيقها ثم ألقى بها إلى الهاوية . . . ولقد قتله جزاءً وفاقاً على
تخطئه إياها . . . وهو سعيد بقتله وانتزاع روحه الخبيثة من بين جنبيه . .
وعند ما أسندت قائدا رأسها الجميل إلى صدره ورفعت وجهها
الملائكي نسي العالم أيضاً ونسى معه حقه على قاتل . . . ولم يشعر إلا
بحبه الجارف ونفسه المتعطشة إليها . . .

وتركها في الخامسة مساءً وقطع من الطريق شوطاً بعيداً قبل أن
تعود به إلى كورة إلى الشريد المسكين . . . وعلى باب منزله وجد كيث
في انتظاره فدخلا معاً . . . ووقف الأخوان تجاه بعضهما وكأنهما
على استعداد للنزال .

قال كيث :

— لقد أعددت لك كل شيء وهالك تذكرة السفر والنقود . . .

— ولكنني باقٍ هنا أيها الأخ . . .

وتقدم كيث إلى المائدة ووضع عليها النقود ثم قال في حزم :

— أصغ إلي . . . لقد قرأت اليوم أوراق القضية فلم أجد فيها ما

يثبت إدانة الشريد . . . ولن تمضي أيام قلائل حتى يطلق سراحه

وتعود إليه حرّيته . . . وأمثال هذا الشريد قد اعتادوا السجن والنزول

في ضيافته فلا تقلق من هذه الناحية . . . نخذ النقود وارجل كرجل

إلى أمريكا . . .

وابتسم لورنس ولكنها كانت بسمه تحمل معاني من الشر والجنون ..
وأخذ النقود وردها إلى أخيه قائلاً :

— خذها وعد إلى بيتك يا كيث واربا بشرفك من الانغماس في
قضيتي .. وإن لم تأخذها فسألقى بها إلى النيران ..

وتقدم من الموقد وما زالت البسمه الرهيبة على شفثيه واستطرد :

— أتأخذ النقود أم أجعل مصيرها إلى النيران ؟؟ ..

فاختطف القاضي نقوده وخيم عليهما سكون طويل ... ثم قال لورنس :

— ما زالت في قرارة نفسي الملوثة بقية من الشرف ... وستذهب

هذه البقية الباقية إذا ما رحلت تاركا ورأى بريئاً في خطر ..

وساد السكون مرة أخرى ثم أجاب كيث :

— إنك مخطيء ... لقد قرأت أوراق القضية فوجدت أن

الأدلة لا تكفي لإدانته ... ولنفرض أسوأ الفروض وحكم عليه

بالسجن .. فليسجن فهو يستحق ذلك .. فلصوص القبور أحقر نفساً

وأحط قدراً من لصوص الأرواح ..

— لا تقل هذا يا كيث .. ولا تصدر حكماً قبل أن تتغلغل في

نفس المتهم وتتعرف جيداً ما دفعه إلى جرمه .. إن القلوب يا شقيق

كتلة من الأسرار المعتمة لا يعلم بحقيقتها إلا الله ...

واحتقن وجه كيث غضباً وبرزت عيناه العميقتان كأنه على وشك

الاختناق وقال :

— هل لى أن أجتزئ على مقامك الكبير وأسأل عن نيتك
بعد ذلك؟؟!! وهل لى أن أذكرك بشرف أسرتك . . تلك الأسرة
المنكوبة التى لم تأت جرماً إلا أنها تعاقبت شريفة نقيمة على مرّ الدهور . .
ألا تستحق أن تدخلها ضمن تقدير ك؟؟!!

فأطرق لورنس خجلاً . . . إنها لقسوة من كيث أن يلذعه بتهكمه
المريـر . . . ولقد كان كمن يضرب فى جسد ميت . . . وأخيراً أجاب :
— لم يستقر رأى على عمل بعد . . وأنا آسف لإزعاجك . .
آسف جداً . .

و بنظرة تفيض حقداً وكراهية اندفع كيث من الحجرة خارجاً . . .

٦

لم يفقه كيث معنى لتصرفات الطبيعة وشدوذها العجيب . . . فهى
تخلق الناس من طينة واحدة ومن بيئة واحدة ثم تفرق بينهم فتجعل
من بعضهم ملوكاً وأسياداً ومن الآخرين عبيداً وأرقاء . . . فيها هو
كيث دارنت رجل الأسرة الأول ومعجزة العدالة والقضاء . . . وها هو
لورنس ينحط إلى أسفل السافلين ويعتبر دون نحر رجل الأسرة الأخير
فيا للحزن ويا للأسف!! لقد صمم هذا الغبي على البقاء فى إنجلترا لينقذ
الشريد مضحياً باسم أسرته وشرف مولده . . . بل مضحياً أيضاً باسم
كيث ومستقبله . . . وأعجب من هذا أن الجريمة الشنعاء ستترفرف

أيضاً على ابنة كيث البريئة . . . فمن سيحترمها وعمها مجرم قاتل ؟؟؟!!
من سيرحب بها وهي ابنة رجل أخوه يرسف في قيود السجن ؟؟؟!!
ومن سيقبل الزواج منها وهذه الغمامة السوداء تظللها أينما ذهبت ؟؟؟!!
ولكن لورنس لا يفهم ذلك ولا يشفق على مستقبل أخيه ولا يرحم
هذه الصغيرة . . . وهو يرفض الرحيل من أجل الشريد !! فيالسخفه . .
أيضحى الإنسان بحياته من أجل شريد ؟؟؟!! أيحطم الرجل حرите
الغالية من أجل لص حقير ؟؟؟ الضمير ؟؟؟!! أمن الضمير
أن ينقذ الإنسان لصاً ويحطم حياة فتاة صغيرة ؟؟؟!!

أقر كيث أن يواصل الاطلاع على سير القضية لا رحمة بشقيقه أو
محبة له وإنما من أجل مستقبله ومستقبل ابنته . . . وظلت الوقائع على
ما كانت عليه . . . فالشريد يؤكد براءته ويقسم بأيمان مغالطة أنه
ما فعل أكثر من سلب القتيل خاتمه . . . والشرطى يؤكد أن هذا
الرجل قد اتخذ منعطف الطريق مأوى كلما خيم الظلام . . . وكلما طردوه
مرة أوى إليه ثانية . . .

ومرت الأيام على مهل وأتى عيد ميلاد المسيح فازدانت الطرقات
والخوانيت بمختلف الزينات احتفالاً به . . . وفي ذلك المساء جلس
كيث في بيته قلقاً حائراً . . . لم يكن قد رأى لورنس منذ اليوم الذى
خرج فيه غاضباً عليه . . . وكان ذلك منذ عدة أسابيع فماذا تراه فعل
طيلة هذه المدة ؟؟ أى يأس ينهش عقله المرتبك وعزيمته الخائرة ؟!

وثارت نخوة الأخوة في قلبه من جديد فندم على قطيعة أخيه خلال تلك المدة . . . واليوم عيد ميلاد المسيح حيث ترن الضحكات في كل بيت والبسمات ترتسم على كل فم . . . ولورنس المسكين أترام يقضى اليوم في بكاء ودموع ؟؟ وتخيل كيث أمه وهي على فراش الموت حين أقسم لها أن يرعى أخاه ويحميه . . . وارتسم وجهها أمامه معاتباً مؤنباً . . . كانت النجوم إذ ذاك تلمع في السماء فينعكس ضوءها على مياه النهر فيكسبها جلالاً وروعة . . . وكان السكون شاملاً وأجراس العيد لم تبدأ بعد . . . وهتف به هاتف غامض فقام إلى معطفه وارتداه . . . وخرج في سيارته الخاصة يشق عباب الظلام . . . وسار إلى طريق فيتزروى وعند ما وصل إلى بيت أخيه وقف ذاهلاً مندهشاً . . . فقد رأى هناك لوحة كبيرة مكتوب عليها « للأيجار » . . . إذاً فقد رحل لورنس !! لقد ذهب إلى الأبد دون نصير أو مال . . . والفتاة ؟؟ أرحلت هي الأخرى ؟؟ وردد السكون صوت أجراس الكنائس وهي تعلن انتصاف الليل . . . فلقد بدأ عيد الميلاد . . . وهز كيث رأسه أسفا وقال لنفسه :

— لو استطعت فقط أن أبعد الجريمة عن رأسي لتمتعت بالعيد كاملاً . . . ألا سحقاً لهذه الحياة التي يتعذب الإنسان فيها من أجل خطيئة الآخرين !!

وعاد واجماً واخترق الطرقات إلى شارع بورو حيث تقطن فاندا . . .

وكان الهدوء شاملاً والظلام مخيماً . وهناك قبس من الضوء ينبعث من
خلال الستائر الرخيصة المسدلة على نوافذ الفتاة . . . وسار كيث أمام
النافذة جيئةً وذهاباً في تردد ظاهر . . . وأخيراً جمع شجاعته واقترّب
من النافذة واسترق النظر إلى الداخل . . . وكان النور في الحجرة
منبعثاً من ركن اتقدت فيه الشموع حول صورة مريم العذراء . . .
ورأى ثانياً تركع أمامها مطرقة الرأس تصلى في خضوع . . . وانعكس
ضوء الشموع على شعرها الذهبي وعنقها العاجي وقامتها الرقيقة فبدت
في جلستها الخاشعة من الملائكة والقديسين . . . ونظر كيث فرأى
لورنس يقف على بعد خطوات منها يرقبها وهي تقوم بصلاتها . .
فيا للنظرة الناطقة البليغة التي ارتسمت في عيني لورنس !! يا للنظرة
التي تفيض حزناً وألماً !! ويا للوجه الذي تجلت عليه آلام الحياة بمرها
وقسوتها . . . وكان قلبه في عينيه . . . ونفسه المعذبة على شفثيه . . .
وحياته الصاخبة المتلاطمة تعصف بوجهه النضر . . . وانعكس ضوء
الشموع على وجهه فبدت شفثاه واضحتين وقد ارتسمت عليهما بسمة
ساخرة متهمكة . . .

وفجأة انتهت الفتاة من صلاتها ورفعت إلى حبيبها وجهها مليئاً بآيات
الإيمان الذي فاضت به نفسها . . . ترى ماذا رأت تلك الفتاة الساقطة
في صورة العذراء ؟! . . .

وانسحب القاضي راجعاً إلى منزله . . . لقد وجد لورنس وسيجده

دأماً في منزل الفتاة ... ووقف القاضى على عتبة داره حائراً ... وجعل
ينظر إلى السماء الصافية وقد لمعت النجوم فيها كقطع من الماس ...
وإلى النهر الذى تنعكس عليه الآلىء السماوية فتكسبه سحراً وجمالاً ...
لقد غمرته العاطفة بعد الذى رآه من خلال النافذة ... ولقد قيدته المرأة
الساقطة بقيود إيمانها وصلاتها الخاشعة ... ثم آلمه ما بدا على وجه
أخيه من عواطف متباينة متضاربة ... وحين انبعشت خيوط الفجر
تشق طريقها إلى السماء المظلمة دخل كيث إلى منزله ... وفى خطى
متباطئة صعد إلى حجرته ...

٧

لم يسعد لورنس فى حياته مثل ما سعد خلال الأسابيع التى مرت
قبل أن يبت القضاء فى جريمة جلوف لين ... فمنذ أن ترك منزله
وشارك فتاته العيش فى حجرتها الخفية وهو فى راحة وهدوء ...
واستطاع بسهولة أن يزيح عن كتفيه هم الجريمة التى تطارده أينما
ذهب ... ولم يكن ذلك بفعل إرادته ... كلا ولا بفعل الحب الذى
يغمر قلبه إنما لتحول تفكيره الدائم إلى غيبوبة نفسانية لا يعرف لها
قرار ... وكان مستمسكاً لحكم القدر راضياً به فما كتبه الله سينفذ على
العباد ... وقد ينتقل فجأة من تلك الغيبوبة النفسانية إلى بحر الحقيقة

المتلاطم فيصارع نفسه ويحاربها ويرتسم صراعه واضحاً على جبينه مثل
ما حدث ليلة عيد الميلاد . . .

وقف يرقب فتاته وهي تصلى حزينا ساهما حتى رفعت الفتاة رأسها
إليه فسألها :

— ماذا رأيت في صلاتك ؟؟

فاقتربت منه واحتضنته بذراعيها وقادته الى الموقد حيث جلس
الاثنان يصطليان بفاره . . . جلسا كطفلين متعانقين يحملقان في النيران
لعلها تكشف لهما ما سيحدث قريباً . . .

قالت له :

— رأيت العذراء تبسم في حنو . . . سنسعد يا حبيبي عن قريب . . .

— هو الموت يا قاندا فليس لنا سعادة سواه . . . إذاً فلنمت معاً
ولنفارق الحياة جنباً الى جنب عسى أن تبعث صحتنا دفئاً في برودة
القبر . . .

واقتربت منه وأصقت جسدها الصغير بجسده الكبير وقالت هامسة:

— نعم نعم . . . إما الحياة معاً أو الموت جنباً إلى جنب . . .

وكان ضعف قاندا واعتمادها الكلى عليه يبعث في قلبه شعوراً من
الراحة والسعادة . . . فتنع بالعيش معها والانقطاع عن الحياة من
أجلها . . . ولا يقطع عليهما وحدتهما إلا حضور الخادم كل يوم . . .
وما عدا ذلك كانا وحيدين . . . لم يخرجوا معاً أبداً . . . ففي الصباح

تنصرف فأندا إلى السوق من أجل الحاجات الضرورية . . . وتنكب
على الأطعمة تطهئها ولورنس نائم في فراشه يحماق في الفضاء وقد انعقدت
ذراعاه تحت رأسه . . . وبين أن وآخر يرقبها وهى تسير هنا وهناك
تنظم البيت وتعد الإفطار .

وفى العاشرة يغادر فراشه للطعام ويختمه بقدح من القهوة التى تتقن
الفتاة صنعها . . . وعند المساء يخرج وحيداً إلى الشرق . . . فى شرق
لندن أحياء الفقراء حيث يعيش البائسون والمنكوبون . . . وهناك
تتجلى آلام الحياة وصعابها التى تهون بجانبها آلامه وصعابه . . . وهناك
الدموع والزفرات والبطون الخاوية . . . وهناك إخوانه فى الشقاء . . .
وبعد جولة طويلة يعود تعباً منهكاً ويجلس بجوار الفتاة وهى تعد له طعام
العشاء . . . أما الليل فهو وقف على الحب . . .

عجيب أمر هذه الفتاة لقد كانت راضية بعيشها ولم تتطلب منه ما تطلبه
مثيلاتها . . . لم تسأله يوماً أن يصحبها إلى رياضة أو أن يشتري لها ثياباً
جديدة أو يعطيها شيئاً من النقود . . . وكانت قانعة بحالها وقناعتها
واضحة على جبينها الهادىء وفى عينيها الصافيتين . . . كانت سعيدة
بحياتها الخاملة فرحة بطعامها الخفيف الذى تشتريه مما يقدمه إليها لورنس
من عطاء قليل . . . ولم ينطق أحدهما بكلمة عن الجريمة . . . لا . . .
ولا بكلمة عن كيث . . . بل ظلا صامتين ينتظران فى سكون ما سيحكم
به القدر .

في اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير انصرف كيث دارنت من قاعة المحكمة بعد جلسة طويلة خرج منها ظافراً منتصراً . . . وفي الطريق سمع صبيّاً ينادى بالحكم في قضية جلوف لين . . . يا إلهي لقد نسي الجريمة طيلة الأسابيع الماضية !! كيف لم يطرأ على ذهنه أن الحكم سيصدر قريباً مادام القضاء جاداً في التحقيق ؟ ؟ ! فتوقف عن المسير وخانته قدماه ولم يستطع التقدم من الصبي وشراء جريدة منه . . . وحين استطاع الانتقال كان وجهه جامداً رهيباً . . .

وتناول الجريدة وقلبها في عجلة فقرأ نبأ الحكم بإعدام الشريد لقتله قال عند منعطف الطريق . . وفغر كيث فمه دهشة ورعباً . . كيف يقترف القضاء خطأً كبيراً مثل هذا ؟ ؟ . . كيف اقتنعت العدالة بأدانتهم ، والشهود قلائل والأدلة ضعيفة واهية ؟ ؟ ! . . الشهود ؟ ؟ من هم غير الشرطي الذي رآه في الطريق ؟ ؟ ! . . الأدلة ؟ ؟ ما هي سوى الخاتم الثعباني الذي وجد في حوزة الرجل ؟ ؟ ! . . أيعدم رجل من أجل تسكعه في الطريق أو من أجل خاتم ذهبي حقير ؟ ؟ ! . . ولكن كلمة العدالة قد صدرت ، ولا سبيل إلى ردها فما العمل ؟ ؟ . . اعتاد الرجال ذوو الإرادة والعزيمة أن لا يفكروا في مصير الأمور قبل حدوثها . . فهم يتركون التقدير إلى حين الوقوع . . وهكذا كان كيث . . فطيلة الأسابيع الماضية ، وهو يقول لنفسه :

— لو أنهم حكموا على الشريد لكان هذا أمراً آخر . .

والآن ، وقد حكموا عليه فما هو هذا الأمر الآخر ؟ ؟ . . لم يستطع التخلص من الرغبة في إنقاذ أخيه . . ولكن كيف السبيل إلى إنقاذه وهناك رجل سيشنق قريباً من أجله ؟ ؟ . . أيترك البريء يعدم من أجل لورنس ؟ ؟ . . ولكن لم لا والرجل الشريد بأُس لا قيمة لحياته في المجتمع ولا نفع منها ؟ ؟ !! أى قيمة لشريد مشوه عاطل يسطو على الأموات فيسرق ما يحملون ؟ ؟ وأى جرم فى أن رجلاً قتل آخر بأن ضغط على عنقه دقيقة أكثر مما يجب ؟ ؟ !!

وعلى عتبة منزله سمع القاضى صديقاً يهتف به :

— مرحى يا كيث ! لقد كنت عظيماً فى قضية اليوم ، فلك تهنئتى

القلبية . . .

وبابتسامة ساخرة ردد القاضى لنفسه :

— تهنئته القلبية لى !! لى أنا !! آه لو أنهم يعلمون . . .

ولم يمض وقت طويل حتى كان كيث قد عاد من حيث أتى . . . واستقل عربة إلى شارع بورد ليقابل أخاه . . وطرق الباب ففتحت له الفتاة ، ودهشت من مرآه ، وتراجعت إلى الخلف قليلاً فبدت حسناء فى ثوبها الحريري الذى يشبه لون الأزهار الذابلة . . . ورأى بعينه الثاقبة أنها لا تقل جمالا فى وضوح النهار عنها فى ضوء الشموع الموقدة . . كانت كما رآها للمرة الأولى بيضاء ناصعة تزين وجهها عينان ساذجتان

ويتهدل شعرها الأشقر فوق عنقها العاجي في شكل جميل أخاذ . .
وقال لها :

— هل لى أن أقابل لورنس ، وأتحدث إليه قليلا ؟

— لم يعد من الخارج بعد . .

— أتعلمين أين ذهب ؟

— كلا . .

— أشاركك العيش هنا ؟

— نعم . .

— وهل ما زلت باقية على حبه ؟

وشهقت متعجبة وامتلات عينها بالدموع وخانها النطق ، فرفعت

يدها إلى قلبها في سكون . . وفهم كيث ما ترمى إليه ، فقال :

— حسنا . .

وتأجج قلبه مرة أخرى بتلك العاطفة الفياضة التي اجتاحت يوم

رآها للمرة الأولى ويوم راقبها من النافذة ، وهي تصلى في خشوع . .

وسار إلى الموقد قائلاً :

— هل لى أن أنتظره هنا ؟

وقدمت إليه مقعداً فرفض الجلوس عليه . . . وبقى واقفاً بجوار

النيران . . .

قالت له في ذلة :

— لن تأخذه منى أو تحرمنى رؤيته أليس كذلك ؟

فأجابها بحدة :

— لست أريد حرمانك منه بل أريد مساعدتك وحمايته .. فهل

أنت على استعداد للرحيل فى أى وقت أراه مناسباً ؟؟

— نعم .. نعم ...

— وهو ؟؟

فأجابت هامسة :

— نعم .. ولكن هناك الشريد السجين ...

— إن هذا الرجل الذى تشفقين عليه لص قبور يسرق من

الأموات ما يحملون ... إنه كالخفاش الحقيق الذى لا يستحق الشفقة

أو الاهتمام ...

فشهقت الفتاة وقالت فى حزن :

— ولكنى حزينة من أجله فربما كان جائعاً حين أقدم على

سرقته ... والبطون الخاوية تدفع الإنسان إلى اقتراف الآثام ...

لقد ذقت الجوع كثيراً فعرفت قسوته وشروره ... ولولا الحب الذى

أنار لى طريق الاستقامة لظلت أخبط فى ظلام الرذيلة إلى اليوم ...

الحب ، ياسيدى ، هو معجزة الحياة التى ترفع البشر إلى سماء الطهر

والإيمان .. ولكن من لهذا الشريد بحبيب يقوده إلى سواء السبيل ؟؟..

إننى أصلى من أجله كل يوم وأضرع إلى الله أن ينقذه من السجن ...

وصر القاضي على أسنانه وسألها في حلق :

— ولورنس؟؟ ألا تفكرين في إنقاذه؟؟ ألا تضحين بالشريد
من أجله؟؟

— إنني أموت لأنقذه... ولكننا لم نقر الرأي فيما نفعله إزاء
ذلك...

— هل علمت بخبر الحكم؟

اتسعت عيناها رعباً ورددت :

— الحكم؟

— نعم....

— وما هو ذلك الحكم؟

— الإعدام...

خيل إلى كيث أن قائدا ستسقط مغشياً عليها... فقد اصفر وجهها
وأغمضت عينيها وترنحت قليلاً كما يترنح الغصن الرطيب إذا ما داعبته
رياح الخريف... فأسرع إليها وأسندها إلى ذراعه وقال :

— أصغى إلى ياقاندا... يجب أن تساعدني على إنقاذ لورنس...
لا تتركه يبعد عنك دقيقة واحدة... إمنعيه من التقدم إلى الشرطة
وسأسعى إلى إنقاذ الشريد بكل ما أوتيت من قوة ومال...
فلم تجبه وظلت مستندة إلى ذراعه وهي تحمق في فضاء الغرفة
فقال لها :

— أفهمين ما أقول؟ ..

— نعم ... ولكن لنفرض أنه تقدم وانتهى الأمر؟؟! ..

أحس كيث بالردة تسرى إلى جسدها الرقيق ... ومادت الأرض تحت قدميه ... ما العمل لو أنه قد فعل ذلك؟؟! .. ما العمل لو أن الشرطة في طريقها الآن إلى المنزل فتجده في صحبة الفتاة؟؟! .. سيأخذه القضاء بجريمة أخيه لتستره عليه ... تأوه قائلاً :

— عديني ألا تتركه يبتعد عنك ... عديني وعداً صادقاً شريفاً ...
— سأحاول ..

— إذا عاد إليك الآن فراقبيه جيداً .. ولا تدعيه يفعل شيئاً حتى أعود إليه صباح الغد ... إنك كاثوليكية فاقسمي بالعداء أن تمنعيه من الخروج حتى أحضر غداً ...

فلم تجبه بل نظرت واجهة إلى باب الحجرة حيث وقف لورنس يرقبهما وقد حمل بين يديه باقة من الزنبق ... وكان وجهه ممتعاً باهتاً ... قال في هدوء :

— أهذا أنت يا كيث؟

قال القاضي :

— هل قرأت الحكم؟

فهز لورنس رأسه مجيباً واستطرد كيث :

— وماذا أنت فاعل؟

— هذا ما كنت أسألك النفس عنه !!

— إن هذا الحكم وصمة في جبين العدالة ولن أرتضيه بأي حال . .
سأطلع على حيثيات الحكم وأعارض فيه . . . ولكن يجب أن
تمنحني الوقت الكافي لذلك . . . أسمع ما أقول ؟ إنني في حاجة
إلى الوقت .

قال كيث ذلك وهو يعلم أن كلماته ستذهب هباء منثوراً . . . وكان
يرغب في رحيلهما إلى بلد بعيد ولكنه لم يجرؤ على التصريح برغبته .
واستطرد :

— عدني أن لا تترك الحجرة حتى أحضر غداً لرؤيتك . . .
فهز لورنس رأسه مرة أخرى . . . والتفت كيث إلى قائدا كأنه
يذكرها بوعدها فبقيت نظراتها ثابتة مسمرة على وجه لورنس . . .
قال القاضي :

— عدني مرة أخرى . . .

— إنني أعدك . . .

وكانت هناك بسمه غامضة على شفتيه . . . بسمه لم يستطع كيث
رغم حنكته وذكائه أن يسبر لها غوراً أو يفهم لها معنى . . وقال
وهو ينصرف :

— لقد وعدتني وسأعتمد على كلمتك . . .

ثم خرج مسرعاً . .

لعل من المستحيل على حبيب أن يخفى عن حبيبته ما يعصف برأسه
 من عواطف وشعور . . . وإذا كانت الحبيبة قد قاست مراحل الحياة فلا سبيل
 إلى إغلاق القلب دونها . . . ولو أنه فعل ذلك لما كان أقل عجزاً من
 رجل يحاول أن يمنع الموسيقى العذبة من أن تلعب بأوتار قلبه الرقيق .
 وحينما ذهب كيث لم تصرخ الفتاة باكياً . . . ولم تسأل . . . ولم تتكلم ،
 وإنما بقيت على عهد لها صامتة تعد الطعام وكأنها لا تعرف ما ينتويه
 لورنس . . . كانت كلماته الرقيقة . . . وقبلاته الحارة . . . ورغبته في
 ملازمتها أينما ذهبت . . . ثم الورود التي حملها والخمر المعتقة التي قدمها
 والرغبة الجارفة في تجنب ما قد يقطع من معادتهما ولو قليلاً دلائل
 على ما استقر في قلبه من عزم . . . كان يصحك ويبسم ولكن الضحكات
 والبسمات لم تخف عن عينيها الواسعتين أن اليوم يوم الوداع وأن القبلة
 قبلة الفناء . . . وشاركته قائداً في مرجه وحبوره الزائفين . . . شاركته
 بذلك الخضوع الذي أخذته عن حياتها الصاخبة السابقة . . . وتقبلته
 كما تقبلت كأس الخمر التي دفعها إلى فمها فشربتها حتى الثمالة على الرغم
 من كراهيتها الشديدة للشراب . . .

وشرب لورنس كثيراً وفي كؤوس الخمر أغرق همومه وأحزانه . . .
 أغرق آلامه ودموعه . . . وأغرق أيضاً شعور الرغبة في الحياة وشعور

الشفقة على حبها الجليل . . . وهكذا قاما يزنان الحجر بالورود الياقة
وبالمائدة العامرة . . . وارتديا أحسن الثياب . . . وترينت قائدا أجمل
الزينة لتستقبل الآخرة وهى فى أوج جمالها وبهاؤها . . . ورددت
الجدران قطعة موسيقية زحفت نغماتها الرائعة من آلة يديرها موسيقى
فقير فى عرض الطريق . . . ورقد الحبيبان جنبا إلى جنب وقد
احتضن أحدهما الآخر . . . رقدا يستمعان إلى النغمات الحزينة
الباكية . . . كاناسعيدين فلا احزان بعد اليوم ولا فراق . . . سينامان معا
كما ينام الضوء إذا خبا لهيب الشموع . . . وكما تنام الأنعام على أوتار
قيثارة محطمة . . .

وظلت الفتاة ترقبه . . .

كانت الساعة العاشرة من المساء حين طلب لورنس إلى حبيبته أن
تذهب إلى الفراش . . . فأطاعته فى سكون . . . وأحضر ورقا وقلمًا
وجلس يكتب بجوار الموقد دون تردد . . . فلم التردد ؟؟ لو أنه عاش ،
واعترف بجرمه لساقوه إلى السجن ، وفرقوا بينه وبين حبيبته . . .
أليست فرقتها أشد وقعاً من الموت ؟؟ . . . والفتاة هى ينبوع العذبة فى
صحرائه الموحشة ، فهل يعيش الإنسان دون ماء فى الحياة ؟؟؟ !

وهكذا ظل يكتب ويكتب وقائدا من الفراش ترقبه . .

والآن وقد انتهت من الكتابة وقف لورنس يتأمل لهيب النيران

بعيون حاملة . . . بعيون تسبح فى عالم بعيد . . .

ومن الفراش ظلت قائدا ترقبه . . .

خرج كيث من لندن أخيه حائراً مفكراً . . . وعرج على ناديه ، وفي حجرة الاستقبال الخالية جلس يقرأ حيثيات الحكم في قضية الشريد . . . لقد استطاعت الشرطة أن تخلق من التهم الزائفة غيوماً كثيفة سوداء تقف حائلاً بين الرجل البريء وبين الحياة . . . فما العمل ؟؟ . . . سيقابل ممثل الدفاع في المحكمة ، ويشرح له خطأ إعدام رجل دون إثبات قاطع . . . ولوعجز في مهمته فباستطاعته أن يقدم إلى أولى الأمر التماساً بليغاً يعترض به على الحكم . . . ولن يشك أحد فيه لأنه قاض كبير تهمة العدالة ويحرص على صدق حكمها . . . سيفعل كثيراً لو أن لورنس خضع لمشورته ، ولم يعترف بجريمته . . .

وحل ميعاد الغداء فجلس إلى المائدة مسوقاً بحكم العادة لأمسوقاً بالرغبة في الطعام . . . وبين آونة ، وأخرى يرفع رأسه ، وينظر إلى الحاضرين ويعجب في نفسه . . . ترى ماذا يقولون لو علموا بالسحب التي تهدد اسمه وشهرته ؟؟؟ ! ! فانكب على زجاجة الشراب يعترف منها فأكسبته الخمر بعض الثقة والشجاعة . . . وعاد إلى قاعة الجلوس ، وهناك على مقعده الأول جلس واستسلم إلى النوم . . .

واستيقظ في المساء فقام متثاقلاً ينبغي الانصراف . . . وكان مرتاح النفس نوعاً . . . ولكن ما كادت قدماه تهبط الدرج المرمري حتى

علاوده الانزعاج . . . وتذكر بسمة لورنس الساخرة . . . وتذكر الفتاة
وهي ترقب حبيبها بعينها الواسعتين . . . كما تذكر النظرة الرهيبة التي
بدت في عين أخيه . . . ترى لماذا كان ينظر هكذا ؟؟ . .
وما الذي جعل لورنس يعود وهو يحمل الورود الياقة ؟؟ . . لو أن
لورنس أقدم على عمل لما منعه الفتاة ، فهي عبدة خاضعة لإرادته . .
ومن يدري ؟ لعله الآن في طريقه إلى الشرطة ليعترف بما جنت يده . .
جمد وجه القاضى ، ودفع يديه إلى جيبى معطفه في عصبية شديدة .
وفي قرار الجيب عثرت يده على شيء بارد صلب . . . إنه المفتاح الذى
أخذه من لورنس فى اليوم الأول للجريمة !! . . . ولقد نسى أمر هذا
المفتاح منذ زمن طويل . . . وأكسبته برودة الصلب شجاعة فانعطف
إلى الطريق الجانبى يقصد شارع بورو . . . ووقف القاضى بجوار منزل
قائدا يستجمع هدوءه ، ثم أقبل على البيت الذى يبغضه الآن كل
البغض . . . وأخرج المفتاح وانسل إلى الداخل . . . وطرق باب حجرة
النوم فلم يجبه أحد . . . لعلهما ينعمان الآن بنوم عميق بعد عناء اليوم
الطويل . . . إذاً فليطرق مرة أخرى . . . وردد السكون صدى طرقاته
فوضع يده على مقبض الباب ، ثم أداره ودخل . . .

كانت الشموع موقدة والنيران مشتعلة . . . وعبير الزنايق يملأ
الجو . . . وبقايا الطعام والخمر مازالت على المائدة . . . وازدادت
ضربات قلبه وتلفت فى رعب حوله ، فرأى فى الركن البعيد فراشاً

صغيراً . . وعلى الفراش رقد الحبيبان . . فتنفس الصعداء . . إذاً فهما
ينامان ، ولم توقظهما طرقاته العديدة . أهى الخمر التي أفقدتهما الوعي ؟ !
واحمر وجهه غضباً فتقدم منادياً :

— لورنس . .

فما من حركة أو مجيب . . .

اقترب من الفراش ونادى ثانية :

— لورنس . .

فأجابه صدى ندائه . . .

وأمسك بذراع أخيه ودفعه في عنف ليوقظه . . . فأحس باليد
باردة كالجليد . . . وكان الاثنان يرقدان جنباً إلى جنب وقد التقت
الشفاه وتقاربت الصدور . . . كانت الوجوه بيضاء والشفاه ممتعة
والصدور ساكنة لا تنبض بالحياة . . . والفتاة مسبلة الجفنين ترتدى
ثوباً أبيض يكشف عن عنق علقت حوله صليباً صغيراً . . . أما عينا
لورنس فقد انفرجتا قليلاً وهما تنظران إلى الفتاة . . . ولكنها نظرات
معتمدة متحجرة تنطق بالموت . . . وارتعد كيث وتلفت حوله في رعب
فراى خطاباً على المائدة يستوقف النظر . . . انحنى فوق المظروف فقرأ
عليه ما يأتى :

« يقدم حالا إلى الشرطة .

لورنس دارنت »

التقط الخطاب وأودعه جيبه ثم انصرف من البيت مسرعاً . . .

سار كيث إلى منزله وهو لا يشعر بمن حوله أو يحس بالطريق الذى يسير فيه . . . وكان كل شئ أمامه مختلطاً مظلماً . . . وفى حجرة المكتبة التى يأوى إليها هرباً من عمله استعاد القاضى هدوءه مرة أخرى . . . وكان أول ما فعله أن صب كأساً من الخمر وشربها دفعة واحدة . . . وحمد الله الذى ألهمه أن يذهب إليهما قبل الآخرين . . . فلو أن الخادم سبقته لأخذت الخطاب إلى الشرطة وانكشف الأمر . . . وأخرج الخطاب ومزق مظروفه وقرأ :

« أنا لورنس دارنت الموقع أدناه أسطر هذه الكلمات وأنا أشرف على الموت مختاراً لأعترف اعترافاً صريحاً شريفاً . . . لقد قتلت قالين وألقيت بجثته عند منعطف الطريق . . . وذلك فى اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر الماضى . . . »

وبعد ذلك شرح مطول للجريمة والأسباب التى دفعته إليها . . .

« والآن أختتم خطابى قائلاً إننى وثاندا ما أحببنا الموت أو رغبتنا ولكننا احتمينا به خوفاً من الفراق . . . وها أنا أعترف بجرمى صراحة حتى لا يؤخذ الشريد بما جنيت . . . ورجائى إلى رجال الشرطة أن يرحموا شبابنا فلا يأمرؤا بتشريح الجثث ويكفيهم أن يعلموا أن السم الذى شربناه من ذلك النوع الموجود فى الزجاجاة الصغيرة

والموضوعة على المائدة . . . ووصيتي الأخيرة أن ندفن معا . .

لورنس دارنت

الساعة العاشرة مساء ٢٨ يناير »

ومرت دقائق خمس وكيث يحملق في الخطاب . . . وردد الجو
صوت دقات الساعة . . . وعصفت الرياح بأشجار الحديقة العالية فارتفع
صوتها كالأنين . . . وجلس على مقعده بجوار الموقد يقرأ الخطاب
مرة ثانية . . .

واقتربت يد القاضى من النيران وهى تحمل الدليل الوحيد على جرم
أخيه فهل يلقى به ؟ ولكن هناك الشريد البرىء فلو أنه أحرق الخطاب
لشنق المسكين لا لذنوب جناه !! أيمحنه الحياة إذا ؟ ... ولكنه لو فعل
ذلك لحطم مستقبله . . . سيعاقبه القضاء على تستره على الجريمة . . .
وسيشهد الشرطى بأنه قابله يوم الحادث عند منعطف الطريق أولا ثم فى
منزل الفتاة !! وإذا تحطم مستقبله سيتحطم معه اسم أسرته ومستقبل
ابنته الصغيرة . . . فمن يتزوجها إذا كبرت وترعرعت ؟ ؟ ومن يمنحها
اسمه وفوق رأسها غيوم سوداء ؟ ! وما الذى يحدث لو أنه أنقذ أسرته
وابنته ومستقبله وضحى بحياة الشريد ؟ ! وأى نفع لهذا المشوه فى المجتمع ؟ ؟
إن نقاء المدينة فى الخلاص من أمثاله !! إذا فليمت الشريد وليشنق
على الرغم من براءته ولتذهب روحه إلى الجحيم وبئس المصير . . .

وفى حركة سريعة ألقى الخطاب إلى نيران الموقد فالتهمته فى

جشع ... وبعد دقيقة واحدة انقلب الاعتراف رماداً أسود ... وضحك
القاضي ورن ضحكه في الحجرة عاليا رهيبا ... ولكن ما هذه الأصوات
الكريهة التي تهتف به؟؟ ما هذا الأنين الخافت الذي يوجع قلبه؟؟
ما هذا الأسى الذي يشعر به؟ .

قام يجرى إلى النافذة وأزاح ستارها الثمين وأرسل ببصره إلى ظلمة
الليل أهنالك مشنقة تتأرجح في الفضاء؟؟ أهنالك جسد مشوه
يتدلى منها؟؟ لا . . . لا . . . إنها أشجار الحديقة وأشباحها في الظلام
تخدع النظر المضطرب

وعاد إلى مقعده الوثير وجلس أمام النيران . . . كانت الشموع
الموقدة في ركن الحجرة البعيد ترسل أشعتها الحمراء الخافتة فينعكس
ضوءها الباهت على الرياش الثمين . . . وكان كل شيء كما حضر لورنس
في المرة الأولى

ما هذه الأفكار السقيمة ومن قال بأن لورنس قد أتى؟؟ . .
لا أحد

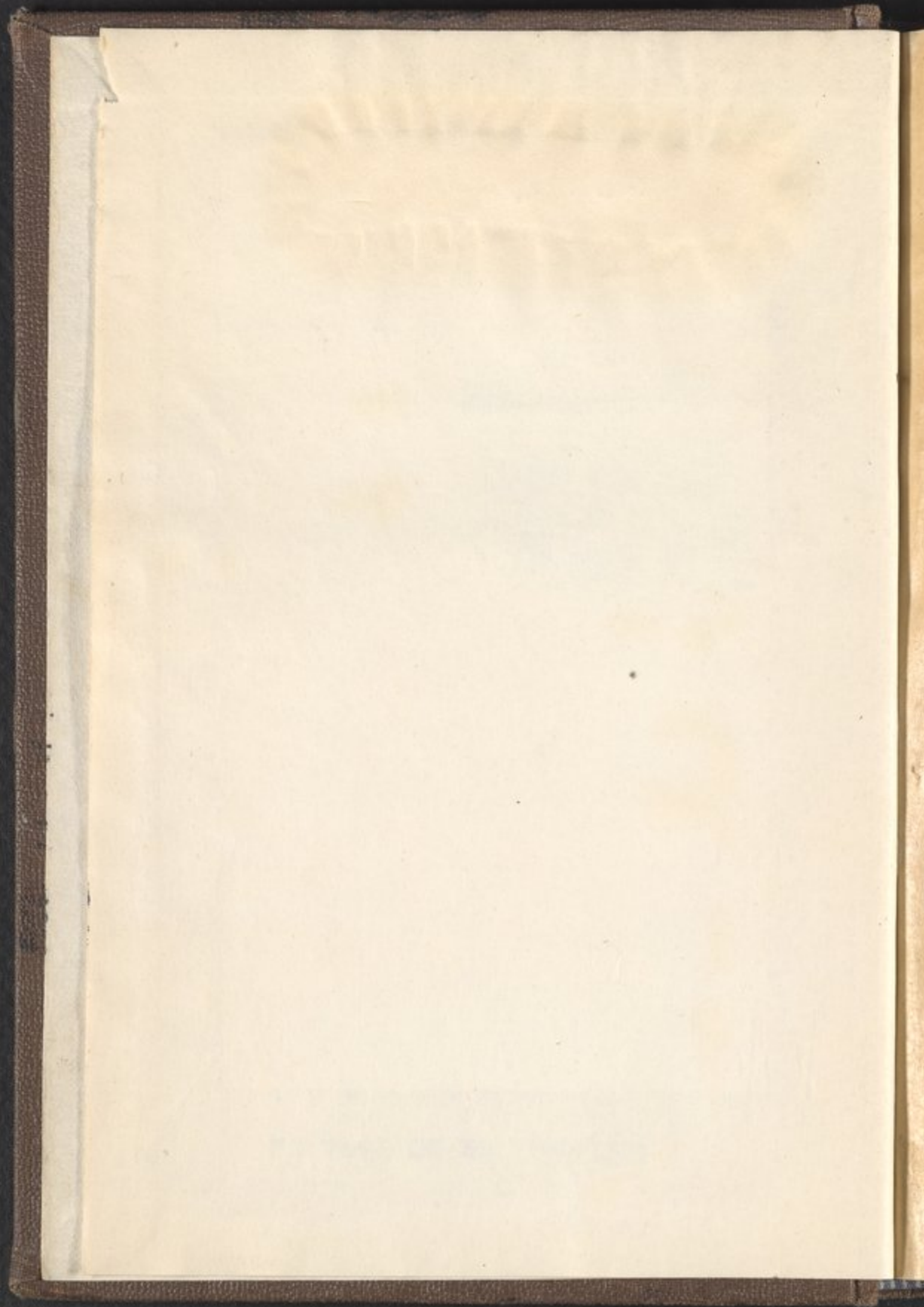
من قال بأنه اعترف لكيث بما اقترفت يده؟؟ . . . لا أحد
من قال بأنه اعترف جرماً كبيراً؟؟ . . . لا أحد
من قال إن رجل العدالة الأول قد أرسل إلى المشنقة برجل برىء
وهو يعلم ببراءته؟؟ . . . لا أحد كذلك

وأغمض عينيه وأسند رأسه إلى ظهر المقعد . . .

فتح كيث عينيه ثانية فوجد أنه ما زال يجلس فوق مقعده الوثير . . .
وأرسل ببصره إلى التقويم المثبت أمامه على الحائط . . . وكان اليوم
الثامن والعشرين من شهر يناير . . . إذا لم يكن ما مر به حلمًا بل
حقيقة واضحة . . .



١٩٤٣/١/٩٥٤ (مطبعة المعارف)



AUC - LIBRARY



DATE DUE

MAY 30 1980	
20 NOV 1990	
17 DEC 1990	

LIBRARY IN CAIRO

6-12510105
J-13882478

main



00000064347

PJ 7692 EB S2 1943/c.1

